هذا هو الإسلام

(١)

• الدين .. والحضارة

• عوامل امتياز الإسلام

« شهادة غربية »

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(١)

* الدين والحضارة

* عوامل امتياز الإسلام

«شهادة غربية»

الطبعـــة الأولى

١٤٢٦ هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٥ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(١)

* الدين.. والحضارة

* عوامل امتياز الإسلام

«شهادة غربية»

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

الفهرس

* * *

الدين.. والحضارة

- ١ -
الإسلام.. الدين

الإسلام: دين التوحيد.. توحيد الله - سبحانه وتعالى - فى الألوهية.. والربوبية.. والذات... والصفات.. والأفعال.. حتى إنه قد بلغ فى هذا التصور التوحيدى قمة التنزيه والتجريد، اللذين لا تستطيع اللغة البشرية التعبير عن حقيقة كنههما.. وإنما - فقط - تضرب لهما الأمثال التى تقربهما إلى التصورات.. فخلاصة الإسلام، والإخلاص للإسلام، هو التوحيد الذى جاءت به سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١، ٤].. والله - سبحانه وتعالى - فى التصور الإسلامى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وبعبارة فلاسفة الإسلام: «فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك»!..

وعلى حين ترى مذاهب وفلسفات أخرى أن لله صورة، وأنه قد خلق آدم على صورته - أى على صورة الله - فإن الإسلام العقيدة - ومعه العربية اللغة - وهى لغة كتابه وشريعته - يفسر هذه المأثورة - «**لقد خلق الله آدم على صورته**» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد - بأن الله قد خلق آدم ﷺ على صورته، أى صورة آدم، إذ الضمير، فى «صورته»، يعود إلى أقرب مذكور، فسبحان الله وتنزه عن التصور والصُّور والتصوير.

***

وشريعة الإسلام: هى الدرجة العليا والأخيرة والخاتمة فى سلم شرائع النبوات والرسالات، التى توالت - فى إطار دين الله الواحد - من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.. لذلك، جاءت هذه الشريعة الإسلامية مصدقة ومستوعبة لما بين يديها، ولما

سبقها من النبوات والرسالات والكتب والصحائف والألواح . . مصدقة فى ثوابت عقائد الدين الإلهى الواحد وقيمه . . ومهيمنة على تلك الشرائع ، بالتصحيح لما حدث فيها من التحريف والتغيير والتبديل . . وبالتذكير لما وقع فيها النسيان . . وبالتجديد والإضافة فيما تجاوزه التطور الزمانى والتغير المكانى والتبدل فى الأعراف . . كما جاءت هذه الشريعة الإسلامية الخاتمة بالانتقال بنطاق التشريع الإلهى من المحلية إلى العالمية . . ومن التوقيت إلى الخلود . . ومن مجرد «الدعوة الدينية» إلى «المنهاج الشامل» للدين والدولة والأمة والحضارة والاجتماع . . وذلك حتى تحرس الدولة الدين، ويسوس الدين الدولة . . فلم تقف هذه الشريعة - فقط - عند مملكة السماء - خارج هذا العالم - وإنما شملت الدنيا مع الآخرة، والفرد مع المجموع، والآخر مع الذات . . ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وإذا كانت آيات العالمية فى القرآن الكريم قد نزلت فى المرحلة المكية، قبل الهجرة والدولة، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فإن هذه العلاقة بين الشريعة الإسلامية وبين أهل الشرائع الإلهية السابقة قد أخذت طريقها إلى «التنظير» و«التقنين» و«التطبيق» منذ اللحظات الأولى للعلاقات التى قامت بين الأمة الإسلامية ودعوتها ودولتها وبين أهل تلك الشرائع والديانات .

- ففى دولة المدينة المنورة، ومنذ العام الأول لقيامها - سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م - نص «دستورها» - الذى اشتهر بـ «الصحيفة» و«الكتاب» - على : **أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم . . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»**[1] .

وفى أول لقاء مع النصرانية - سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨م - السنة التى بدأت فيها العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية - خاطب الصحابى «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق. هـ - ٣٠ هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] «المقوقس» - عظيم القبط فى مصر - محدداً علاقة الإسلام بما سبقه من شرائع ورسالات . . فقال - «للمقوقس» - : **«إن لك ديناً - [أى النصرانية] - لن تدعه**

إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التورة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به..»[٢].

فلما استقبل رسول الله ﷺ، وفد نصارى «نجران» - فى المدينة سنة ١٠ هـ سنة ٦٣١م. فتح لهم باب مسجد النبوة، فصلوا فيه صلاتهم لعيد الفصح.. وقنّن لهم - فى العهد الذى كتبه لهم - علاقة الشريعة الإسلامية ودولتها بالشريعة النصرانية والمتدينين بها، وهى علاقة «المواطنة» الكاملة فى ظل الدولة الإسلامية والمرجعية الدينية والأمة الواحدة.. صنع ذلك رسول الله ﷺ عندما كتب لهم: «لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم، عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»[٣].

فقرر الإسلام وقنّن - منذ ذلك التاريخ - كامل حقوق المواطنة، انطلاقًا من الدين، وعلى أساس من العقيدة الإسلامية - وليس على أنقاض الدين والاعتقاد الدينى - كما هو حال «المواطنة» فى حضارات أخرى!

* * *

والإسلام: هو الدين القيِّم.. ودين القيم.. أى الدين المستقيم، والمقوِّم لأمور الناس ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].. ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وهو دين القيِّمة.. أى دين الأمة التى تسلك سبيل العدل والاستقامة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].. فمساحة القيم والأخلاق فى شريعة الإسلام هى مصدر القانون، والمعيار لإسلامية هذا القانون.

والإسلام: دين البيّنة، التى تبين الشىء وتوضحه، حسيًا كان هذا الشىء أو عقليًا.. ولقد ورد هذا المصطلح ومشتقاته فى القرآن الكريم فى ثلاثمائة وسبعة وخمسين موضعا: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ [الأنفال: ٤٢].. ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ [الأنعام: ١٥٧].

***

والإسلام: دين البرهان، أى الحجة الفاصلة البينة. يقيم البرهان على عقائده وحقائقه.. ويدعو الآخرين إلى البرهنة على ما لديهم من مقولات وتصورات: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [النساء: ١٧٤].. ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ [المؤمنون: ١١٧].. ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: ١١١].. ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ [الأنبياء: ٢٤].. ﴿ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [القصص: ٧٥]. ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون (٥٩) أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون (٦٠) أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون (٦٣) أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

والإسلام: علم ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران: ٦١].

والله ـ فى الإسلام ـ هو ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ [التوبة: ٩٤]. وأولو العلم، فى الإسلام، هم ـ مع الله والملائكة ـ القائمون بالقسط ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾ [آل عمران: ١٨]. وهم الأكثر خشية لله، عندما يكتشفون أسرار الإبداع الإلهى والقدرة الإلهية فى الكون ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨].

لذلك، فإن الإسلام إذا حاكم واحتكم إنما يحاكم إلى العلم وإليه يحتكم: ﴿نبئونى بعلم إن كنتم صادقين﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ﴿ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾ [الأحقاف: ٤].

***

والإسلام نور واستنارة وتنوير إيمانى ﴿يهدى الله لنوره من يشاء﴾ [النور: ٣٥]ـ ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والله ـ فى الإسلام ـ نور: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [النور: ٣٥]ـ والقرآن نور: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا﴾ [التغابن: ٨]ـ وكذلك «الحكمة» ـ التى هى الصواب العقلى ـ هى الأخرى نور.. وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ: «**إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة**» ـ رواه الإمام مالك فى [الموطأ] ـ ورسول الإسلام ﷺ نور: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [المائدة: ١٥].

***

ـ ٢ ـ

العدل الإسلامى

والعدل ـ فى الإسلام ـ اسم من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى[٤].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرّم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]. ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ولذلك، كان العدل هو الروح السارية فى الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.. فلقد حرّم الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه، ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

ولقد أوجب الإسلام العدل فى كل المعاملات والعلاقات، حتى مع من نكره ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وحتى مع من يُقاتلنا ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية والتكوينية التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس على مزاج يتغير، أو خُلق يتبدل.. فالتنوع والاختلاف ـ أى وجود الآخرين ـ هو سنة من سنن الله فى كل عوالم

المخلوقات . . والواحدية والأحدية هى، فقط، للذات الإلهية، ومن عداه وما عداه - فى عوالم الإنسان . . والأفكار . . والشرائع والملل . . والمناهج والثقافات والحضارات . . والألسنة واللغات والقوميات . . والأجناس والألوان . . والشعوب والقبائل - بل وفى النبات والحيوان والجماد - هذا التنوع والتمايز والاختلاف فى جميع هذه العوالم سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . . والتعارف - المؤسس على التعايش والتعاون والتحاور - هو المقصد الأسمى لهؤلاء الفرقاء المختلفين ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات : ١٣]، ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم : ٢٢]، ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] . . أى وللتنوع والاختلاف والتمايز خلقهم . . وفى هذا التنوع والاختلاف الحافز على التسابق فى طريق الخيرات بين المختلفين : ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٤٨] .

وإذا كان الإسلام قد اعترف بكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع التى توالت على طريق علاقة السماء بالإنسان، عبر التاريخ الطويل للنبوات والرسالات ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة: ٢٨٥] . وتجاوز - بذلك - مجرد الاعتراف بالآخر إلى حيث جعل هذا «الآخر» جزءاً من «الذات»، عندما قرر أن تنوع الشرائع السماوية إنما هو تمايز فى إطار وحدة دين الله . . فلكل أمة شرعة، أما الدين فواحد . . والأنبياء - ومن ثم أممهم - إخوة، أمهاتهم - أى شرائعهم - شتى وأبوهم - أى دينهم - واحد . . وفى هذا المعنى وهذه الفلسفة جاء حديث رسول الله، ﷺ : **«الأنبياء أولاد علّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»** - رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد.

ولهذه الحقيقة - حقيقة نظرة الإسلام هذه إلى «الآخر»، وعلاقته به . . كان العدل الإسلامى الذى حرص دائمًا على أن يميز بين الفرقاء والفصائل والمذاهب والتيارات والطوائف فى هذا «الآخر»، فلا يعمم ولا يضع الجميع فى «سلة» واحدة، كى لا يظلم بهذا التعميم . . ولذلك، لا نجد الإسلام - مثلا - يضع أهل الكتاب جميعهم فى «سلة» واحدة، فيعمم الحديث عنهم، وإنما نجده يتحدث عن «كثير» من أهل الكتاب . . و«طائفة» من أهل الكتاب . . و«فريقًا» من أهل الكتاب . . فهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ . وإنما ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ ومنهم الذين ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ . . يسلك القرآن الكريم سبيل العدل هذا، فيميز بين الفرقاء المتمايزين وفق تمايزهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء . .
فنقرأ فيه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٦]، ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩] - ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فمن أهل الكتاب: ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ ومنهم من هم ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومنهم من هم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وإذا كانوا ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ . . فإن جزاءهم عند الله ليس واحدًا . . فالذين كفروا منهم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦]، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

والمسلمون يدعون كل فرقاء «الآخر» إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ـ والجدال معهم يجب أن يكون، ليس فقط بالأسلوب الحسن، وإنما بالأحسن ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ـ فالكلمة السواء هى أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد لله . . والإيمان بالغيب . . والعمل الصالح . . مع التنوع فى الشرائع داخل أصول هذه الكلمة السواء . .

ولهذا العدل الإسلامى، لم يعمم القرآن الكريم الحكم بالتحريف على كل ما لدى أهل الكتاب، وإنما نبه على أن فيما لديهم هدى ونورًا ـ فـ ﴿الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

هكذا بلغ الإسلام الذروة فى العدل مع كل ألوان أطياف «الآخرين» و«المخالفين».

* * *

- ٢ -

السماحة الإسلامية

ولأن الإيمان - فى الإسلام وبالإسلام - هو تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، استحال الوصول إلى هذا الإيمان بأى لون من ألوان الإكراه، فكانت القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لذلك كان سبيل الإسلام إلى القلوب هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، فمن استجاب قلبه كان مؤمنًا بالإسلام.. ومن أعرض قلبه، فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].. وحسابه فى - الآخرة - إلى الله وعلى الله.. أما فى الدنيا، فإن «له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين».

ولهذه الحقيقة كان انتشار الإسلام سلميًا.. بل ودون مؤسسة تبشيرية ترعى وتعمل على هذا الانتشار.. وإذا كانت أغلب بقاع عالم الإسلام وأكثر شعوب الأمة الإسلامية عددًا لم تجر فيها فتوحات ولا حروب إسلامية.. فإن كل حروب الإسلام إنما كانت دفاعا عن حرية الاعتقاد، وحرية الضمير، وحرية الاختيار، وحرية الوطن الذى يعيش فيه المسلمون.. فكل غزوات عهد النبوة إنما كانت ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى دينهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]، ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧ - ٩].

فلم يعرف الإسلام «حروبًا دينية»، لقهر المخالفين على الإيمان به.. وكل ضحايا غزوات عهد النبوة من الجانبين - شهداء المسلمين وقتلى المشركين - هم، على سبيل الحصر ٣٨٦ قتيلا!! - ١٨٣ هم جملة شهداء المسلمين.. و٢٠٣ هم جملة قتلى المشركين[٥].. بينما ضحايا «الحروب الدينية»، داخل النصرانية - بين الكاثوليك والبروتستانت - قد بلغت عشرة ملايين - وفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤ - ١٧٧٨م] - أي ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا أبيدوا في هذه الحروب الدينية التي امتدت نحو قرنين من الزمان!

أما كل معارك الفتوحات الإسلامية، في القرن الهجري الأول، فإنها كانت ضد جيوش القوى الاستعمارية التي قهرت الشرق، سياسيًا وحضاريًا ودينيًا وثقافيًا، لأكثر من عشرة قرون.. ضد جيوش القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية.. ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الإسلام وبين أهل البلاد المفتوحة.. بل لقد وقف أهل تلك البلاد - وهم على دياناتهم القديمة - مع جيوش الفتح الإسلامي، وشاركوا في هذه الفتوحات.. ورأوا فيها تحريرًا لأوطانهم من القهر الاستعماري الروماني.. وتحريرًا لضمائرهم وعقائدهم من القهر الديني والحضاري.. بل ورأوها إنقاذًا إلهيًا لهم - على يد المسلمين - وعقابًا إلهيًا للمستبدين الرومان.

وبهذه الحقيقة شهد الأسقف «يوحنا النقيوسي» - وهو شاهد عيان على الفتح الإسلامي لمصر - فقال: **«إن الله، الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - [العرب المسلمين] - ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم، مرض «هرقل» ومات.. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام..»**[٦].

وشهد بذلك أيضًا الأسقف «ميخائيل السرياني» فقال: «**لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام**»[٧].

فالفتوحات الإسلامية كانت تحريرًا لأوطان الشرق من الاستعمار والاستعباد والاستغلال الروماني.. وكانت «إنقاذًا» لنصارى الشرق ونصرانيتهم من القهر الروماني.. حررت الأرض.. وحررت ضمائر الشعوب، ثم تركتهم وما يدينون في «سلام».. فكانت نصرانية الشرق ـ بهذه الفتوحات ـ «هبة الإسلام»!

❊ ❊ ❊

- ٤ -
الإسلام.. الحضارة

ولأن الإسلام «دين» و«دولة» و«حضارة»، فلقد فجّر، منذ ظهوره، «الإبداع الحضارى» مع هدايته القلوب إلى «الإيمان بالله».

فبينما اقترن انتشار النصرانية فى أوروبا - فى القرن الرابع الميلادى - ببدايات العصور الأوروبية الوسطى - والمظلمة، التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى، وامتدت عشرة قرون. . حتى إن أوروبا النصرانية لم تعرف أول فلكى فى تاريخها - «كوبرنيكوس» [١٤٧٣ - ١٥٤٣م] - إلا فى القرن السادس عشر. . وكتابه الذى كتبه عن [دوران الأفلاك] سنة ١٥٣٠م، لم يطبع إلا بعد وفاته. . وظل مُصادرًا من قبل الكنيسة حتى القرن الثامن عشر - سنة ١٧٥٨م!!. .

بينما حدث هذا لأوروبا المسيحية، فجّر الإسلام - منذ ظهوره - الإبداع الحضارى، فى علوم التّمدن المدنى، مع علوم العقيدة والشريعة والتفسير والحديث. .

إن أوروبا المسيحية قد تخلفت عن العلوم المدنية والطبيعية عشرة قرون، فى ظل نصرانيتها، بينما فجّر الدين الإسلامى الإبداع الحضارى فى العلوم المدنية والطبيعية منذ القرن الهجرى الأول. . ولقد وقفت خلف هذا الامتياز والتميز الإسلامى أسباب عديدة. . فى مقدمتها:

تميز النظرة الإسلامية «للطبيعة» و«العالم» عن النظرة المسيحية لهذه «الطبيعة» وهذا «العالم». . فالطبيعة والعالم - فى النظرة الكنسية - «مدنّس»، فى مقابل اللاهوت «المقدس»، ومملكة هذا اللاهوت الكنسى أشرف من أن تتحقق فى هذا العالم «المدنّس»!. . لذلك، كان الاشتغال بالعلوم الطبيعية والتجريبية عملاً شيطانيًا؛ لأنه طلب للعلم خارج «المقدس» - الإنجيل واللاهوت. . وكانت «التجارب» - فى ظل هذا

اللاهوت الكنسي ـ كالعمل اليدوى ـ فى ظل الفكر الإغريقى ـ مما لا يليق بالأحرار والأشراف . . وإنما هى من عمل العبيد الأرقاء! . .

ومن هنا كان اضطهاد الكنيسة لكل الذين اشتغلوا بالعلم التجريبى . . وكانت انتصارات هذه العلوم الطبيعية التجريبية ـ فى النهضة الأوروبية ـ على أنقاض سلطان الكنيسة وسلطات رجال الدين ، وفى ظلال العلمانية ، التى استبدلت «الدين الطبيعى» «بالدين الإلهى» ، وجعلت العالم والطبيعة المصدر الوحيد للمعرفة ، بل وألهت الطبيعة ، وأحلتها محل الله ، وجعلت مملكتها فى هذا العالم وحده ، منكرة عالم الغيب ومملكة السماء . .

هكذا تأخر العلم الطبيعى ـ فى أوروبا المسيحية ـ حتى استردت العلمانية «الشرف» للطبيعة ، فى ثورتها على اللاهوت .

ـ أما الإسلام ـ الذى اقترن فيه «الإيمان» بـ «العمل» ـ فإنه قد رأى ويرى فى هذه «الطبيعة» خليقة مخلوقة لله ، ـ سبحانه وتعالى ـ مثلها فى ذلك مثل الإنسان ، وكل عوالم المخلوقات . . فلها ـ ككل المخلوقات ـ شرف الخلق الإلهى . . بل إن هذه الطبيعة ـ فى الرؤية الإسلامية ـ حية مؤمنة بخالقها ، وهى تسبحه كما نسبحه ، حتى وإن لم نفقه نحن تسبيحها! . . إن لها شرف الخلق الإلهى ـ حتى إن الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] كان يؤثر أن يسميها «الخليقة» ، بدلاً من «الطبيعة» ـ ولها شرف الخطاب الإلهى لها . . بل وعرض الأمانة عليها . . ولها ـ كذلك ـ شرف العبادة والتسبيح لله! . .

ثم إن هذه الطبيعة ـ الخليقة ـ قد سخرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل قواها وطاقاتها ، لخدمة الإنسان ، فغدا عمرانها التحقيق للأمانة التى حملها الإنسان ، كخليفة لله ـ سبحانه وتعالى . . ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤] .

فالبحث فى هذه الطبيعة ، التى خلقها الله . . وخاطبها . . وسخرها للإنسان . .

والنظر فى سننها، والاكتشاف لأسرارها، عبادة لله، وقيام بالفريضة الإلهية التى كانت أولى فرائض الإسلام.. فريضة القراءة لآيات الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فالقراءة هنا قراءتان: قراءة لآيات الله الكونية والطبيعية ـ المودعة فى الطبيعة.. وقراءة لآيات الله المنزلة.. أى قراءة فى كتاب الله المنظور.. وقراءة فى كتاب الله المسطور.

بل إن القرآن قد جعل البحث والتجريب والاكتشاف لأسرار الله فى الطبيعة والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجريبية، فى مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الدينى، والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعية هم الأكثر خشية لله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

على حين كان المشتغلون بهذه العلوم الطبيعية والتجريبية ـ بنظر الكنيسة الأوروبية ـ هم المارقين والملاحدة، الذين تركوا البحث فى «المقدس» ـ اللاهوت ـ واشتغلوا بالتجريب فى «المدنس» ـ الطبيعة» وعلومها ـ!!.

لهذ الحقائق، التى مايزت بين الإسلام وبين نصرانية الكنيسة الأوروبية، عاشت أوروبا المسيحية عشرة قرون مظلمة ـ بدأت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م ـ الذى تزامن مع انتشار المسيحية فى أوروبا ـ وامتدت حتى اكتشاف «كريستوفر كولومبس» [١٤٥١ ـ ١٥٠٦م] لأمريكا سنة ١٤٩٢م.. وبدء الإصلاح الدينى على يد «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] فى القرن السادس عشر الميلادى.

أما الإسلام، فإنه ـ لتميزه.. ولتميز موقفه من الطبيعة ـ ولأنه دين ودولة وحضارة ـ قد سلك طريقا آخر. اقترن فيه الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية والمدنية بالإبداع فى العلوم الشرعية.. وكانت فيه الطبيعة وعلومها وآيات الإبداع فيها هى السبيل إلى معرفة الله وعظمته وقدرته.. وهى السبيل إلى خشيته.. بينما أدى الغلو العلمانى ـ

الذى جاء رد فعل للغلو الكنسى إزاء الطبيعة - إلى أن صاح الذين أحلوا العلم الطبيعى محل الله، صيحتهم المنكرة التى قالوا فيها: «لقد مات الله»!!..

لقد برئ الإسلام من غلو احتقار الطبيعة.. ومن غلو تأليه الطبيعة.. حتى لقد رأينا الإبداع فى العلوم الشرعية والإلهية يجاور ويزامل الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية، ليس فقط فى المجتمع الإسلامى، وإنما فى عقل العالم المسلم، وفى المشروع الفكرى لكثير من علماء الإسلام.. فلم نعرف علماء للعلوم الشرعية.. وآخرين للعلوم الطبيعية. وإنما وجدنا تجسد هذه النظرة الإسلامية الجامعة بين عالم الغيب وعالم الشهادة.. بين قراءة آيات الله المسطورة فى كتاب الوحى وقراءة آيات الله المنظورة والمبثوثة فى الأنفس والآفاق.. وجدنا تجسد هذه النظرة الجامعة فى المشاريع الفكرية للكثير من علماء الإسلام، الذين جمعوا - فى ثقافتهم - بين «الشرعى» و«المدنى» فى المعارف والعلوم.. فكانوا «تجريبيين» «مؤمنين».. و«روحانيين - ماديين»؛ لأن الدين - فى حضارتهم - : وضع إلهى يسوق الإنسان لعبادة الله ولعمران الكون، ولإقامة دولته فى هذا العالم الطبيعى، مستعينا فى أداء أمانة الاستخلاف بكتابى «الوحى» و«الوجود».

ومن هؤلاء العلماء، الذين امتزجت فى إبداعاتهم العلوم الإلهية بالعلوم الطبيعية:

* أبو الوليد بن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م] الذى كان الناس يفزعون إلى فتواه: فى «الفقه» كما يفزعون إلى فتواه فى «الطب».. فهو الطبيب المجرب.. والفقيه الأصولى المتكلم.. والحكيم.. إنه صاحب [كتاب الكليات] - فى الطب - و[بداية المجتهد ونهاية المقتصد] - فى الفقه - و[مناهج الأدلة فى عقائد الملة] و[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] - فى علم الكلام والتوحيد.

* وابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله [٣٧٠ - ٤٢٨هـ ٩٨٠ - ١٠٣٧م] الذى كان «الشيخ الرئيس» فى «الشرعى» و«المدنى».. فى «الإلهيات» و«الطبيعيات».. فى «التصوف» و«النبات والحيوان» و«الهيئة».. فمن آثاره فى الطب: [القانون].. وفى الحكمة والإلهيات: [الشفاء] و[المعاد] و[أسرار الحكمة المشرقية].. وفى التجريب والطبيعة: [النبات والحيوان] و[الهيئة] و[أسباب الرعد والبرق].. إلخ..

* والبغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر [٤٢٩هـ ١٠٣٧م] الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين.. والمبرزة فى الحساب.. وفى الهندسة.. حتى لقد قالوا: إنه كان يُدرّس فى سبعة عشر فنّا! ومن آثاره: [أصول الدين]، و[تفسير القرآن] و[معيار النظر]، و[التكملة فى الحساب]، و[رسالة فى الهندسة].. إلخ..

* والخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم [٥١٥هـ ١١٢١م] اللغوى.. والشاعر.. والفيلسوف.. والمؤرخ. والرياضى.. والفقيه.. والمهندس.. والفلكى!.. ولقد بقيت لنا من آثاره: [مقالة فى الجبر والمقابلة]، و[شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس]، و[الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما]، و[الرباعيات]، و[الخلق والتكليف].. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، وتكامل الإبداع فيها..

* والفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر [٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠م] الذى كان الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعاً. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول.. والمنقول.. وعلوم الأوائل». ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: [مفاتيح الغيب] ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و[معالم أصول الدين]، و[لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات]، و[الخلق والبعث] ـ فى التوحيد وأصول الدين.. و[محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين]، و[نهاية العقول]، و[البيان والبرهان] ـ فى الفلسفة.. و[المباحث المشرقية] ـ فى التصوف ـ.. و[السر المكتوم] ـ فى الفلك ـ و[النبوات] ـ فى النبوة والرسالة ـ و[النفس] ـ فى علم النفس ـ.. كما أبدع فى الهندسة [كتاب الهندسة] و[كتاب مصادرات إقليدس].. إلخ.

هكذا تكامل وتزامل وامتزج «الشرعى» و«المدنى».. «الإلهى» و«الطبيعى».. «الروحى» و«المادى». و«المنقول» و«المعقول» فى الإبداع الإسلامى، دونما تناقض، كذلك الذى رأيناه فى أوروبا النصرانية..

ذلك أن الإسلام قد جاء ليعلم الإنسان أن المقاصد من خلق الله له هى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ـ لكنه

لم يحصر العبادة في الشعائر وفي المحاريب . . بل لقد رأيناه يجعل الأرض والطبيعة كلها محرابًا ومسجدًا . . ! . . ورأيناه قد جعل عمران الكون وصلاح الدنيا ـ بالمعارف والعلوم الكونية والشرعية ـ من أفضل العبادات . . فالدنيا والطبيعة ليست «دنسا»، مقابلاً للدين «المقدس»، وإنما هي خلق الله، الذي يسبحه، والذي يتوقف «صلاح الدين» على صلاحه؛ لأن معارف الدنيا والأمن فيها هما شرط صحة العبادات وصلاح الدين . . حتى ليقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]: **«إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا . . فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن . . فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . . فبان، إذن، أن نظام الدنيا . . شرط لنظام الدين . .»**[٨].

بل ووجدنا من فلاسفة الإسلام وعلماء الإلهيات في الحضارة الإسلامية من يرى في الاشتغال بأبحاث العلوم التجريبية قربة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعبادة من أفضل العبادات . . فالعلم الطبيعي، وتدبر حقائق الكون وسننه وقوانينه، واكتشاف أسرار الإبداع الإلهي فيه، هو السبيل لمعرفة الله، التي هي جوهر الدين، وباب الدخول إليه . . كما أنه هو السبيل إلى خشية الإنسان لربه، وهو المحقق لجوهر الشعائر والمناسك والعبادات ومقاصدها وثمراتها . . ولذلك، تحدث الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ ـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م] عن هذا العلم الطبيعي **«الذي تتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة، والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب في الصلاة، حتى ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد»**[٩].

فالطبيعة ليست مدنسة، بل هي مخلوق يسبح الخالق . . ومقامها في الشرف هو مقام الحقيقة التي بدونها لا يعرف الإنسان الألوهية ولا التوحيد! . . فالجمع بين علومها وبين الإلهيات خصيصة من خصائص الفلسفة الإسلامية، وأمارة من أمارات التمكن من الصناعة والرياسة في العلم الإسلامي . . وبعبارة الجاحظ: **«وليس يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام، متمكنًا من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذي**

يجمعهما، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق «التوحيد» وإعطاء «الطبائع» حقها من الأعمال. ومن زعم أن «التوحيد» لا يصلح إلا بإبطال حقائق «الطبائع»، فقد حمل عجزه على الكلام فى «التوحيد»، وكذلك إذا زعم أن «الطبائع» لاتصح إذا قرنها «بالتوحيد». ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى «الطبائع». وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على «التوحيد» إلى بخس حقوق «الطبائع»؛ لأن فى رفع «أعمالها» رفع «أعيانها»، وإذا كانت «الأعيان» هى الدالة على الله، فرفعت «الدليل»، فقد أبطلت «المدلول عليه».. ولعمرى! إن فى الجمع بينهما لبعض الشدة.. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركنًا من أركان مقالتى. ومن كان كذلك لم ينتفع به!»[10].

فأعيان الطبيعة هى الدليل إلى الألوهية والتوحيد.. والتجريب هو السبيل إلى ذلك.. بينما احتقار الطبيعة، والانصراف عن علومها التجريبية، هو المعطل للدليل على معرفة الله وما له من صفات الكمال والتنزيه..

❊❊❊

ـ ٥ ـ
العقلانية الإسلامية

والإسلام لم يعرف التناقض بين «العقل» و«النقل» . . فالنقل فيه ـ القرآن الكريم ـ معجزة عقلية **«عُرِضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى . فى أثنائها . .»**[١١] . . والآيات التى تتحدث عن العقل ومقامه، وعن القلب وتعقله، وعن الحكمة، واللُّب، والنهى، والفقه، والاعتبار، والتفكر، والتدبر ـ فى القرآن الكريم ـ تقترب من ثلاثمائة آية :

فالنقل ـ فى الإسلام ـ معجزة عقلية . . والعقل ـ فى هذا الإسلام ـ هو سبيل فقه النقل، فهو الأساس للدين، ولا بناء بدون أساس . . وبعبارة الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م] : **«فإن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها هو علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ لا تُعرف الأصول إلا بحجج العقول . .»**[١٢] .

وإذا كان النقل والشرع كالضياء والنور، فإن العقل كالبصر، وبدون العقل يصبح الناس عمياناً أو مغمضى الأجفان لا يستفيدون من ضياء الشرع ونور النقل . . وبعبارة حجة الإسلام الغزالى : **«فإن مثال العقل : البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء . . فالمعرض عن العقل، مكتفياً بنور القرآن، مثاله : المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان . . فالعقل مع الشرع نور على نور»**[١٣] .

فالإسلام، ليس الكهنوت الكنسى الذى ناصب العقل ـ مع الطبيعة ـ الاحتقار والازدراء . . حتى لقد قال القديس الفيلسوف «أنسيلم» [١٠٣٣ ـ ١١٠٩م] : **«يجب**

أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك، بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت، فليس الإيمان فى حاجة إلى نظر عقل»(١٤)!

الإسلام ليس هذا اللاهوت الكنسى، وإنما هو الدين الذى قال بعض فلاسفته - ومنهم أبو علىّ الجبائى [٢٣٥ - ٣٠٤هـ ٨٤٩ - ٩١٦م] - انطلاقًا من أوامر القرآن الكريم بالنظر ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] .. قال كثير من فلاسفة الإسلام - انطلاقًا من هذا الأمر القرآنى بالنظر، أى التأمل والتدبر والتفكر والاعتبار -: «**إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر**»؛ لأن النظر هو السبيل إلى معرفة الله(١٥).

* * *

- ٦ -

الإبداع الحضارى المبكر.. لماذا؟؟

لهذه الحقائق، التى ميّزت الإسلام عن النصرانية - فى لاهوتها الكنسى - أقام الإسلام - فى أرض الواقع - مدنية وحضارة وإبداعًا فى العلوم الطبيعية، مع إقامة إنسانة الصلوات فى المساجد والمحاريب. . ولم يقف هذا التميز، فقط، عند الإبداع المبكر - منذ القرن الهجرى الأول: فى هذه الميادين، على حين تأخر إبداع الغرب النصرانى فى العلوم الطبيعية عشرة قرون: وإنما تميز الإسلام - فى هذا الميدان - أيضًا بإقامته المدنية والحضارة والإبداع فى العلوم الطبيعية، انطلاقًا من الدين، وبحافز الدين، وتحقيقًا لمقاصد الدين، وإرضاء وقربة وعبادة لرب هذا الدين. . وليس - كما حدث فى الغرب - على أنقاض الدين، وبعد العلمنة، التى مثلت ثورة على الدين، وفى ظل الحداثة، التى مثلت «دين العلم. . الدين الطبعى» الذى حل محل الدين الإلهى!. .

لهذه الحقائق، بدأ الإحياء الإسلامى للمواريث العلمية - مواريث العلوم الطبيعية والكونية - فى الحضارات السابقة. . وبدأ تمثل الإسلام لهذه المواريث. . و«**بدأ الإنتاج الفكرى العلمى فى الإسلام منذ القرن الأول للهجرة**». . **أى منذ اللحظة التى بدأ فيها تكوين المجتمع الإسلامى فى منتصف القرن الهجرى الأول. . فهذا المجتمع قد «تكوّن من بيئات شتى، وثقافات مختلفة، وألسنة متباينة، فأصبح - فى الواقع - مقرًا لاتصال أصحاب المدارس العديدة، وتلاقح أفكارها، بعد أن كانت قبله مفصولة بعضها عن بعض، وكان تأثرها ببعضها غائبًا تقريبًا»**[١٦].

ومن الشهادات التى شهد بها العلماء الثقاة، على أن هذا الإبداع المبكر فى العلوم المدنية والطبيعية إنما كان ثمرة من ثمرات الدين الإسلامى، شهادة العالم الحجة فى تاريخ العلم: الدكتور فؤاد سيزكين، التى يقول فيها: «**إن هناك دافعًا خطيرًا أسهم إلى**

حد كبير فى محاولة المسلمين أخذ ما لدى غيرهم من الأمم من علوم ومعارف دون عوائق . . وهذا الدافع يتضح مما أوجزه «فرانس روزنتال» فى كتابه [استمرار علوم الإغريق القدماء فى الإسلام] حيث قال : «ليس يكفى الدافع النفعى العملى، أو النظرى ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية، بل لا بد من فهم موقف الدين الإسلامى ذاته من العلم . . وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب، بل للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها، وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر فى السعى وراء العلوم، وفى فتح الأبواب للوصول إلى المعارف الإنسانية، ولولاه لانحصرت الترجمة فى أشياء ضرورية للحياة العملية وحدها . . »(17) .

فموقف الإسلام من العلم، كان العامل المؤثر فى التمثل المبكر والإبداع المبكر للمسلمين فى ميادين العلوم الطبيعية والكونية والحضارية .

* * *

ويلفت ابن النديم [٤٣٨ هـ ١٠٤٧م] - صاحب [الفهرست] - النظر إلى أن البحث عن مواريث السابقين، والنظر فيها، والتدوين لعلومها ومعارفها، إنما بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول، على عهد معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق . هـ - ٦٠هـ ٦٠٣ - ٦٨٠م] . . وذلك عندما يذكر أن «عبيد بن شرية [٥٦٧هـ - ٦٨٦م] - وهو جاهلى، أدرك الإسلام، وأسلم - وفد على معاوية، فسأله معاوية عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة - [أى اختلافها] - وأمر افتراق الناس فى البلاد؟ - وكان استحضره من صنعاء اليمن - فأجابه إلى ما أمر به، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية . وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦هـ - ٦٤٦ - ٧٠٥م]، وله من الكتب [كتاب الأمثال] و[كتاب الملوك وأخبار الماضين] . . . »(18) .

فالتدوين لمعارف وعلوم الأوائل قد بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول . . وليس فى العصر العباسى - كما شاع عند الكثيرين - .

* * *

ولقد أصبحت الترجمة لعلوم الصنعة - العلوم الطبيعية - وإحياء تراث مدرسة الإسكندرية فى هذه العلوم «صناعة إسلامية كبرى» يتفرغ لها كوكبة من المترجمين والعلماء منذ القرن الهجرى الأول . . وكان الأمير الأموى «خالد بن يزيد» [٩٠هـ ٧٠٨م] على رأس العلماء المتبتلين فى هذا الإحياء والتمثل والإبداع العلمى . . وكما يقول صاحب [الفهرست] : **«فإن خالد بن يزيد كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً فى نفسه، خطيبًا شاعرًا، فصيحًا حازمًا، جوادًا ذا رأى، وله همة ومحبة فى العلوم . . ولقد خطر بباله نقل علوم الصنعة إلى العربية، فأحضر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى . وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة . . كما نقل له «اصطفن القديم» [الإسكندرى] كتب الصنعة وغيرها . . »**[19].

وخالد بن يزيد هذا - كما يضيف صاحب [الفهرست] - **«هو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . ويقال إنه قيل له :**

- لقد فعلت أكثر شغلك فى طب الصنعة - [أى تخصصت وتفرغت لهذه العلوم] - فقال :

- ما أطلب بذلك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى . وأنا أريد أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحدًا عرفنى يومًا أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة!

ويقال - والله أعلم - إنه قد صح له عمل الصناعة، وله فى ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير فى هذا المعنى رأيت منه خمسمائة ورقة، ورأيت فى كتبه [كتاب الحرارات] و[كتاب الصحيفة الكبير] و[كتاب الصحيفة الصغير] وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة»[20].

فنحن هنا أمام ما هو أكثر من الترجمة للعلوم الطبيعية - علوم الصنعة - إلى العربية . نحن هنا - أيضا - أمام تطبيقات عربية وإسلامية لهذه العلوم . . وبعبارة «ابن النديم» : فإن خالد بن يزيد **«قد صح له عمل الصناعة»** . . ومشروعه العلمى هذا كان يريد به خلق دولة للعلم والعلماء، توازى - إن لم تتفوق - على دولة السياسة

والخلفاء. . فهو بعد أن ذهبت عنه الخلافة، أراد أن يغنى العلماء ـ ومن ثم الأمة ـ «عن الوقوف بباب السلطان، رغبة أو رهبة»!. .

فمنذ القرن الهجرى الأول، تخلّقت فى الحضارة الإسلامية والاجتماع الإسلامى نواة «سلطنة العلماء»، التى تعصم أركانها من الوقوف بأبواب الأمراء!. .

ونحن هنا أمام إبداعات رأى كتبها صاحب [الفهرست]. . بل وأمام صياغات شعرية ومنظومات أدبية لحقائق وقوانين هذه العلوم الطبيعية ـ على عادة العرب فى تركيز الفنون والمتون ـ رأى منه ابن النديم خمسمائة ورقة لخالد بن يزيد وحده!. .

ويدعم هذه الحقيقة ـ حقيقة التطبيقات الإسلامية المبكرة للعلوم الطبيعية ـ قول «ابن عساكر» [٤٩٩هـ ١١٠٥م] عن خالد بن يزيد: إنه قد مارس تجارب تحلية مياه البحر المالحة، وتحويلها إلى مياه عذبة!. وأنه قد قال لأصحابه: **«إن شئتم أعذبُ لكم ماء البحر؟ فأتى بقلال من ماء. . ثم وصف كيف يصنع به حتى تعذب. .»**![٢١].

وخالد بن يزيد هذا هو الذى قال فيه خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦١ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م] ـ تقديراً لمكانة العلم الذى أشرف على ترجمته وتدوينه والإبداع فيه ـ: **«ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد. لا أستثنى من ذلك عثمان ولا غيره»**[٢٢]!. . فقدمه على عثمان بن عفان [٤٧ق. هـ ـ ٣٥هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] ـ عليهم جميعًا رضوان الله. .

ولعل هذه الكلمات أن تلفت الأنظار إلى البعد العلمى وإلى مقام العلم الطبيعى فى عقل وفكر ودولة وإنجازات الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ـ وهو بُعد لم يلتفت إليه أحد ـ فلقد وقف دارسوه عند تقواه وورعه، وإحيائه السنة وتدوينه لها، وإماتته البدعة ومحاربته إياها. . وعند ثورته الإصلاحية التى رد بها المظالم إلى أهلها. . وعند إحيائه للشورى. . وإقامته للسلام العام فى المجتمع ـ بل لقد زعم البعض أنه لم يكن «رجل دولة»[٢٣]!. . لكن استقراء تاريخ العلم الطبيعى ـ فى الحضارة الإسلامية ـ يكشف عن إنجازات هذا الراشد الخامس ـ عمر بن عبد العزيز ـ فى القرن الهجرى الأول ـ فى هذا الميدان. . **ففى عهده عمم تدريس الطب «بعد أن كان بالإسكندرية. . ويقول ابن أبى أصيبعة [٥٩٦ـ ٦٦٨هـ ١٢٠٠ ـ ١٢٧٢م] فى [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء]** عن ابن أبجر الكنانى: **«كان طبيبًا عالمًا ماهرًا، وكان فى أول أمره مقيمًا فى**

الإسكندرية؛ لأنه كان المتولى فى التدريس بها من بعد الإسكندرانيين . . وذلك عندما كانت البلاد فى ذلك الوقت لملوك النصارى - [الرومان] - ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز - وكان حينئذ أميرًا قبل أن تصل إليه الخلافة - وصَحِبَهُ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحران، وتفرق فى البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه فى صناعة الطب»(٢٤).

فعمر بن عبد العزيز - فى القرن الهجرى الأول - هو الذى عمم تدريس الطب فى حواضر الدولة الإسلامية، بعد أن كان وقفًا على الإسكندرية.

ولقد بدأت اهتمامات عمر بن عبد العزيز بهذا الميدان قبل إمارته وخلافته . . وإلى هذه الحقيقة يشير صاحب [طبقات الأطباء والحكماء] فيقول: **إن أول كتاب فى الطب ترجم إلى العربية هو [كناش] القس «أهرن بن أعين» - من أهل الإسكندرية - وهو فى ثلاثين مقالة «وجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه، ووضعه فى مصلاه، فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحًا أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم». وكان مترجمه هو «ماسرجويه» الطبيب البصرى - وكان يهوديًا سريانيًا . .**(٢٥).

هكذا، كانت المحاريب، وكانت استخارة الله - سبحانه وتعالى - الطريق الذى سلكته الحضارة الإسلامية لإحياء العلوم الطبيعية وتعميمها بين الناس . . بعد أن ظلت مواريث تلك العلوم حبيسة الصناديق الحديدية لعدة قرون؛ بسبب الكهنوت الذى أقام العداء بين هذه العلوم ولاهوت المحاريب!

* * *

وفى هذه المرحلة المبكرة، أصبحت الترجمة صناعة كبرى، فتحت النوافذ أمام العقل المسلم والحضارة الإسلامية على كل مواريث العلوم فى مختلف الحضارات التى سبقت ظهور الإسلام . . حتى ليذكر ابن النديم - فى [الفهرست] - أسماء أكثر من سبعين من التراجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى العربية(٢٦). وهى كل لغات العلم العالمى فى ذلك التاريخ - ومن نماذج هؤلاء المترجمين:

- «يوحنا بن ماسويه» [١٩٠ - ٢٦٠هـ ٨٠٩ - ٨٧٣م] الذى قلده هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣هـ ٧٦٦ - ٨٠٩م] ترجمة الكتب القديمة (الطبية) التى وجدت بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم.. ووضعه أمينًا على الترجمة، ووضع له كُتّابًا حذاقًا يكتبون بين يديه. وخدم الرشيد والأمين [١٧٠ - ١٩٨هـ ٧٨٧ - ٨١٣م] والمأمون [١٧٠ - ٢١٨هـ ٧٨٦ - ٨٣٣م] وبقى على ذلك إلى زمن المتوكل [٢٠٦ - ٢٤٧هـ ٨٢١ - ٨٦١م]..(٢٧).

- و«يوحنا بن البطريق» الذى تولى أمانة الترجمة على عهد المأمون.. وترجم كثيراً من كتب الأوائل:. وترجم كتاب أرسطوطاليس [٣٨٤ - ٣٢٢ق.م] إلى الإسكندر [٣٥٦٦ - ٣٢٤ق.م] - المعروف بسر الأسرار، وهو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة - من اللسان اليونانى إلى اللسان الرومى، ثم من اللسان الرومى إلى اللسان العربى - ولقد عانى فى طلب أصل هذا الكتاب «فقصد الهياكل - [المعابد] فى البحث عنه، حتى وصل إلى هيكل عيد الشمس، الذى كان بناه «هرمس الأكبر» لنفسه يمجد الله تعالى فيه. قال: فظفرت فيه بناسك متعبد مترهب، ذى علم بارع، وفهم ثاقب، فتلطفت به، وأعملت الحيلة عليه، حتى أباح لى مصاحف - [كتب] الهيكل المودعة فيه، فوجدت فى جملتها المطلوب الذى نحوه قصدت وإياه ابتغت - الذى أمرنى أمير المؤمنين - [المأمون] - بطلبه مكتوبًا بالذهب، فرجعت إلى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد»(٢٨).

- «وحنين بن إسحاق» [١٩٤ - ٢٦٠هـ ٨١٠ - ٨٧٣م] - تلميذ يوحنا بن ماسويه - كان عالمًا بلسان العرب، فصيحًا باللسان اليونانى جداً - تعلمه بالإسكندرية - بارعًا فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين.

ومما يشهد على أن النشاط العلمى فى هذه العلوم الطبيعية قد استمر حتى فى اللحظات التى اضطهد فيها التيار العقلانى - المعتزلة - أن «حنين بن إسحاق» - هذا قد اختير للترجمة، وائتمن عليها.. ووضع المتوكل له كُتّابًا نحارير عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا.. وهو الذى أوضح - فى عهد المتوكل - معانى كتب «بقراط» [٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م] و«جالينوس» [١٣١ - ٢٠١ ق.م] ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها، وأوضح مشكلها.. وعمد إلى كتب «جالينوس» فاحتذى فيها حذو الإسكندرانيين، فصنعها على سبيل المسألة والجواب، فأحسن فى

ذلك . . وله كتاب صناعة المنطق، لم يسبق إلى مثله غيره، لحسن تقسيمه، وبراعة نظامه . . (٢٩) . . فاستمر النشاط فى العلوم الطبيعية حتى فى عهد المتوكل العباسى، الذى اضطهد المعتزلة والمتكلمين!

ثم نبغ الكندى، أبو يوسف يعقوب بن صباح الكندى [١٨٥ ـ ٢٦٠هـ ٧٩٦ ـ ٨٧٣م] الذى كان عاملاً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والهيئة والنجوم وطبائع الأعداد واللحون . . وترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها مشاكلها، ولخص المستصعب، وبسط العويص . . وألف فى التوحيد كتابًا على طريق أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان لم يسبقه إلى مثله أحد . . وكتاب فى إثبات النبوة، بذات المنهاج . . (٣٠) . . فبرهن بالعقل على التوحيد . . وعلى النبوات . . حتى قال «البيهقى» [٤٩٩ ـ ٥٦٥هـ ١١٠٦ ـ ١١٧٠م] عن فلسفة الكندى: إنه قد جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات .

ولقد أوجز الكندى ـ فى رسالته إلى «المعتصم بالله» [١٧٩ ـ ٢٢٧هـ ٧٩٥ ـ ٨٤١م] منهاج الحضارة الإسلامية فى الانفتاح على الحضارات العالمية، فقال: « . . **وينبغى أن لا نستحى من الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شىء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغى بخس الحق ولا التصغير بقائله، ولا بالآتى به، ولا أحد بخس بالحق، بل كل يشرفه الحق . . ومن أوجب الحق أن لا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية، فإنهم وإن قصروا عن بعض الحق، فقد كانوا لنا أنسابًا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم، التى صارت لنا سبيلاً وآلات مؤدية إلى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقته، ولا سيما إذ هو بيّن عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا .**

إنه لم ينل الحق ـ بما يستأهل الحق ـ أحد من الناس بجهد طلبه، ولا أحاط به جميعه، بل كل واحد منهم إما لم ينل منه شيئًا، وإما نال منه شيئًا يسيرًا بالإضافة إلى ما يستأهل الحق، فإذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم، اجتمع من ذلك شىء له قدر جليل . فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق، فضلاً عمن أتى بكثير من الحق، إذ أشركونا فى ثمار فكرهم، وسهّلوا لنا المطالب الخفية، بما أفادونا من

المقدمات المسهلة لنا سبل الحق، فإنهم لو لم يكونوا، لم يجتمع لنا مع شدة البحث فى مددنا كلها هذه الأوائل الحقّية، التى بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية، فإن ذلك إنما اجتمع فى الأعصار المتقادمة عصراً بعد عصر إلى زماننا هذا، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب فى ذلك»(٣١).

بهذا المنهاج، الذى ظل متبعًا فى تاريخ العلم الإسلامى، تفتحت نوافذ العقول الإسلامية على المواريث الفكرية والعلمية فى كل الحضارات.. ورأينا هذا المنهاج عند أبى الوليد بن رشد، الذى قال: **«إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك.. سواء أكان مشاركًا لنا فى الملة أو غير مشارك فى الملة.. فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان صوابًا قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه..»**(٣٢).

وحتى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] الذى قال: **«إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل»**..

ومن قبل جميع هؤلاء، حديث رسول الله، ﷺ: **«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها»** رواه الترمذى وابن ماجة..

❊❊❊

ومن الذين نبغوا: فى العلوم الطبيعية والكونية ـ أبناء شاكر: محمد بن موسى بن شاكر [٢٥٩هـ ٨٧٣م]. وأحمد بن موسى بن شاكر [كان حيًا قبل ٢٥٩ هـ ٨٧٣م] ووالدهما: حسن بن موسى بن شاكر [٢٠٠هـ ٨١٥م].. والذين مثلوا نموذجًا للمؤسسات «الأكاديمية» الأهلية فى المجتمع الإسلامى.. فأنجزوا إنجازات كبرى فى الرياضيات وعلم الهيئة والحيل والنجوم والفلسفة والموسيقى.. وأقاموا لذلك مجمعا للترجمة والتأليف.. حتى ليقول صاحب [الفهرست].. **«إنهم قد بذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب»**.. وأقاموا نظام **«التفرغ»** للترجمة والتأليف.. وكانوا **«يرزقون حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة [٢٢٠ ـ ٢٨٧هـ ٨٣٥ ـ ٩٠٠م] وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار»**(٣٣).

❊❊❊

وغير هذا الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة والتجريب والعلوم الطبيعية . . وثمرات هذا الموقف فى التمثل المبكر والإبداع المبكر فى ميادين هذه العلوم وتطبيقاتها . . يشير مؤرخ العلوم الإسلامية الدكتور فؤاد سيزكين إلى لون آخر من التميز الإسلامى فى هذا الميدان . . وهو النظرة الإسلامية إلى أصحاب تلك المواريث العلمية القديمة . . وكيف تميزت هذه النظرة الإسلامية عن نظرة اللاتين عندما نقلوا العلوم عن الآخرين . . يشير الدكتور فؤاد سيزكين إلى ذلك، فيقول: **«إن عملية الأخذ والتمثل قد تمت لدى اللاتين على غير الصورة التى تمت بها عند العرب؛ ذلك أن المسلمين اهتدوا إليها بوساطة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وبواسطة مواطنيهم أصحاب المعارف الأجنبية. أما عند اللاتين فكانت على صورة أخرى . . لقد كانوا ـ أعنى اللاتين ـ مضطرين إلى أخذ المعارف، وإلى أخذ أنظمة المؤسسات المختلفة، وإلى أخذ أساليب الجامعات وبرامجها من الأعداء السياسيين والدينيين. لقد كانوا يشعرون بشعور المعاداة والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم، وانعكس ذلك على عملية الأخذ بصورة عقد نفسية، وطبيعى بعد هذا أن يفقدوا عنصرى الوضوح والصراحة، وهما العنصران الأصليان فى عملية أخذ المسلمين عن الآخرين»**[٣٤] .

نعم. لقد كان اللاتين ـ إبان نهضتهم ـ يأخذون عن من يعتبرونهم «أعداء . . هراطقة» وعن من يعتبرونهم دونهم فى سلم الإنسانية . . ولذلك افتقر نقلهم ـ كما يقول الدكتور سيزكين ـ إلى الوضوح والصراحة، فلم يذكروا المصادر ولا الأسماء التى نقلوا عنها فى الأغلب الأعم، فكان نقلاً أقرب ما يكون إلى «السرقة»! . . بينما كان النقل الإسلامى واضحًا صريحًا موثقًا . . فهم يقومون بواجب دينى، هو الإحياء لمواريث الإنسانية، وينهضون بفريضة إلهية هى النظر فى آثار الأمم والشعوب والقراءة لآيات الله المبثوثة فى الأنفس والآفاق، والتى نظر فيها الأولون، الذين ينقل عنهم المسلمون . . وذلك فضلاً عن أن هذا النقل إنما كان يتم من مراكز علمية وحضارية كانت جزءًا من دار الإسلام، ويقوم به مسلمون أو أهل الكتاب، هم جميعًا أمة واحدة تعيش فى دار الإسلام.

لقد أحيا المسلمون العلوم التى قبرتها النصرانية لعدة قرون!

وأشركوا ـ فى هذا الإحياء العلمى ـ التراجمة غير المسلمين، الذين حالت عقائدهم الدينية بينهم وبين الاشتغال بالعلم لعدة قرون!

كل ذلك بفضل الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة.. والعلم الطبيعى.. والحقيقة العلمية بوجه عام!

❊❊❊

وبعد مرحلة النقل والتمثل لمواريث الحضارات القديمة فى العلوم والمعارف.. وبعد بواكير التطبيقات الإسلامية لحقائق وقوانين هذه العلوم.. جاءت مرحلة النضج للعقل العلمى الإسلامى، والتى تجلت فى المراجعة والاختيار والتجريب لكثير من نظريات تلك العلوم.. ومن ثم النقد والتصحيح والتطوير لكثير منها.. ثم الإضافات الإبداعية فى ميادينها.. كل ذلك بفضل براعة المسلمين فى التجريب، وإبداعهم للمنهج التجريبى ـ الذى جاء ثمرة لموقف الإسلام من الطبيعة ومن العمل والتجريب فى أنحائها..

ويتحدث الدكتور فؤاد سيزكين عن هذه المرحلة من مراحل العلم الإسلامى، فيقول: «ولسنا نخالف الحقائق التاريخية إذا اعتبرنا أن مرحلة «الأخذ والتمثل» تنتهى فى أواسط القرن الثالث الهجرى إلى مرحلة الإبداع.. وذلك بإدراك العلماء المسلمين بأنفسهم أنهم قادرون على الإبداع، وهم قادرون بالتالى على أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه الإغريق من قبلهم.

فالإخوة الثلاثة المشهورون ببنى موسى، والذين كانوا يقومون بعمل مشترك فى دراستهم لأرخميدس [٢٨٧ ـ ٢١٢ق.م] وأبلونيوس [٢٦٠ ـ ٢٠٠ق.م] كانوا يحاولون الوصول إلى تحديد الرقم اليونانى أدق مما وصل إليه القدماء، وإلى حد جديد لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وقد كانوا يصححون ما وقع لأبولونيوس فى كتابه [المخروطات] على رأيهم..

كذلك نذكر فى ميدان الرياضيات أن الماهانى [كان حيا قبل ٢٦٠هـ ٨٧٤م] حاول فى أواسط القرن الثالث من الهجرة أن يجد الحل العددى لمعادلة من الدرجة الثالثة.

وفى ميدان الطب والبصريات كان الرازى [٢٥١ ـ ٣١١هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٣م] يرد على إقليدس وجالينوس قولهما فى كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى

الأشياء، ويصرح الرازى بأن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين، كما يرى أن حدقة العين تتغير كبراً وصغراً بمقدار قوة الضياء الذى يدخل فيها.

ونرى مثلا أن الكندى ينصرف عن معظم ما توصل إليه أرسطوطاليس والعلماء اليونانيون الآخرون فى ميدان الآثار العلوية (ميثاورولوجيا) ويأتى بآراء خطيرة لا يختلف بعضها عن النتائج الحديثة»(٣٤).

ويقول «ألاردغور» عن كتاب عبد الرحمن الصوفى [٢٩١ ـ ٣٧٦ هـ ٩٠٣ ـ ٩٨٦م] [كتاب الكواكب الثابتة]: إنه أصح من كتاب «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨م] وزيجه أصح زيج وصل إلينا من كتب القدماء.. وأكثر الأقدار التى أوردها الصوفى مثل أقدارها المعتمد عليها الآن فى أزياج «اجلندر» و«هيس» [١٨٦٦ ـ ١٩٤٩م]. وفى كتاب الصوفى هذا ـ [كتاب الكواكب الثابتة] ـ صور الأبراج والصور السماوية فى هيئة أناسى ملونة.

وللبتانى [٣١٧هـ ٩٢٩م] [زيج الصابى].. الذى يقال إنه أصح من زيج بطليموس.. ومن كتب الكوهى: [كتاب الزيادات على أرخميدس فى المقالة الثامنة.. وللأمير أبو نصر منصور بن على بن عراق [٤٢٥هـ ١٠٣٤م] [رسالة فى حل شبهة عرضت فى الثالثة عشرة من كتاب الأصول](٣٥). وللرازى ـ محمد بن زكريا ـ [كتاب الشكوك والمناقضات التى فى كتب جالينوس].. هذا غير تحقيقه لصناعة الكيمياء ـ التى ألف فيها أربع عشرة مقالة.. وتآليفه فى الجبر»(٣٦).

ولابن الصلاح ـ نجم الدين أبى الفتوح أحمد بن محمد السرى ـ [المتوفى بدمشق سنة نيف و ٤٥٠ هـ] ـ [كتاب المقالات السبع] الذى انتقد فيه عدداً من العلماء القدماء، منهم أرسطو فى المقالة الثانية من [كتاب البرهان].. والمقالة الثالثة عن كتاب [السماء والعالم].

وللسموأل بن يحيى بن عباس المغربى [٥٧٠هـ ١١٧٥م] [كتاب الباهر] ومن مباحثه «تعليل ما زعم «فيثاغورس» [القرن السادس ق. م] أنه أدركه بطريق الوحى».

كما كانت لابن باجة [٥٣٣هـ ١١٣٩م] ملاحظات قيمة على نظام بطليموس فى الفلك، وقد انتقده، وأبان مواضع الضعف فيه. وكذلك صنع ابن طفيل [٤٩٤ ـ ٥٨١هـ ١١٠٠ ـ ١١٨٥م] فى نقد بطليموس أيضاً.

وقد تنبه نصير الدين الطوسى [٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ ١٢٠١ ـ ١٢٧٤م] لنقص أقليدس [القرن الثالث ق. م] فى قضية المتوازيات.. كما انتقد ـ فى كتابه [التذكرة فى علم الهيئة] [كتاب المجسطى] واقترح نظامًا جديدًا للكون أبسط من النظام الذى وضعه بطليموس.. ويعترف مؤرخ العلم «سارطون» [١٨٨٤ ـ ١٩٥٦م] بأن الانتقاد الذى وضعه الطوسى للمجسطى يدل على عبقريته وطول باعه فى الفلك.. ويمكن القول إن انتقاد الطوسى هذا كان خطوة تمهيدية للإصلاحات التى تقدم بها «كوبرنيكس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م].

ومن مؤلفات ابن الهيثم [٣٥٤ ـ ٤٣٠هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٩م] [كتاب حل شك أقليدس]..

ومن مؤلفات الخيام [٥١٥هـ ١١٢١م] كتاب [شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس] و[مقالة فى الشكوك على بطليموس].

ومن مؤلفات قسطا بن لوقا البعلبكى [٣٠٠ هـ ٩١٢م] [كتاب شكوك كتاب أقليدس].

ومن مؤلفات العباس بن سعيد الجوهرى [ظهر حوالى سنة ٨٣٠م] [كتاب الأشكال التى زادها فى المقالة الأولى من أقليدس].

ولقد أجرى أمير سمرقند «أولغ بك بن شاه روخ بن تيمور [٧٩٦ ـ ٨٥٣هـ ١٣٩٣هـ ١٤٤٩م] أرصادًا صححت بعض الأرصاد التى قام بها اليونان، وذلك عندما رأى أن حساب التوقيعات للحوادث ـ وفق التجارب والأرصاد ـ لا يتفق مع ما قرره بطليموس(٣٦).

وهكذا ـ بعد النقل والتمثل لعلوم الأولين ـ قاد المنهج التجريبى علماء المسلمين إلى المراجعة والنقد والشكوك والتصحيح لما ترك الأولون.. ثم توالت إبداعات الإضافة والتطوير بعد الإبداع فى المراجعة والتصحيح.

ولعلنا ندرك مدى الأمانة العلمية، والتقدير لما أبدعه القدماء، حتى أثناء المراجعة لتراثهم، والنقد له، والتصحيح لأخطائه.. ندرك مدى هذه الأمانة والعظمة العلمية الإسلامية، التى جعلت العلم والحقيقة «رحما» بين بنى الإنسان.. ندرك

ذلك، ونحن نقرأ كلمات الخيام فى كتابه [مقالة فى الشكوك على بطليموس]. . والتى يقول فيها: **«إن الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر. . ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة. . أعنى «بطليموس القلوذى»، وجدنا فيها علومًا كثيرة، ولما خصمناها وميزناها. . وجدنا فيها مواضع شبهة وألفاظًا بشعة ومعانى متناقضة. . إلا أنها يسيرة فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة. ورأينا أن فى الإمساك عنها هضمًا للحق وتعديا عليه. . ووجدنا أن أولى الأمور ذكر هذه المواضع وإظهارها، ثم نجتهد بعد ذلك فى سد خللها وتصحيح معانيها، ولسنا نذكر فى هذه المقالة جميع الشكوك التى فى كتبه. .»**[٣٧].

إنها حضارة العدل والحق، التى صنعت مناهج هؤلاء العلماء العظماء! . .

❊ ❊ ❊

وإذا كان الإسلام قد تميز عن الرسالات السماوية التى سبقته، بإقامته «للدولة» التى تحرس «الدين»، والتى يسوسها هذا الدين. كما تميز بتكوينه «لأمة. . وجماعة» . . و«بوطن» هو الوعاء «للأمة» و«الدين» . . كما تميز بإبداعه «للحضارة والمدنية»، كأثر من آثار تطبيقاته «كدين» . . كما تميز «بالعالمية»؛ لأنه لن يُبعث نذير فى أى مكان من هذا العالم، بعد بعثة رسول الإسلام؛ ﷺ . . وتميز ـ كذلك ـ «بخلود شريعته» إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها الشريعة التى ختم بها الله رسالات السماء والوحى الإلهى لبنى الإنسان.

إذا كان الإسلام قد تميز فى هذه الميادين عن الرسالات التى سبقته. . فلقد تميز فى حضارته بمنهاج «الوسطية الجامعة» فى النظر إلى «ذاتها» وإلى «غيرها» من الحضارات.

وإذا كان كتاب [الفهرست] لابن النديم [٤٣٨هـ ١٠٤٧م] قد مثّل باكورة علم إسلامى، ارتادت به الحضارة الإسلامية ميدان التصنيف للعلوم والفنون والعلماء والفرق والمذاهب والملل والنحل. . فإن فى هذا الكتاب ـ العمدة ـ معالم منهاج إسلامى فى النظر إلى العلاقات بين الحضارات.

فهو فى الديانات والمعتقدات والمذاهب يفرد لكل أمة مكانًا يحكى فيه عقائدها وكتبها والمبرزين من علمائها. . ويصنع ذلك ـ أيضًا ـ فى الحديث عن الأساطير والخرافات

والعزائم والسحـر . . وذلك إشـارة إلى سنة اختـلاف الأمم فى الشـرائع والملل والثقافات . .

وهو فى علوم الكلام، والفقه، واللغة والنحو، والآداب والسير والأنساب، والشعر، وعلوم القرآن والسنة، يقف عند إبداع العرب والمسلمين . . وذلك إشارة لتميز علوم الأمة الخاتمة ـ أمة الإسلام ـ عن نظائرها فى الأمم الأخرى .

وهو فى الفلسفة، والعلوم الطبيعية، وعلوم الصنعة ـ التطبيقية ـ يسوق أخبارها وأعلامها وكتبها فى تسلسل واحد، منذ النشأة وحتى عصره، عبر الأمم والتاريخ . . وذلك إشارة إلى أنها مشترك إنسانى عام، تتوارثه الأمم والحضارات، وتضيف إليه وتبدع فيه، وتتفاعل مع غيرها فى حقائق هذه العلوم وقوانينها .

الأمر الذى يزكى التمييز بين «العام ـ الإنسانى» و«ما هو خاص متميز» لدى كل أمة من الأمم وحضارة من الحضارات .

فإذا علمنا أن فلاسفة الإسلام ـ من الكندى [١٨٥ ـ ٢٦٠هـ ٧٩٦ ـ ٨٧٣م] إلى مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] ـ قد تميزت فلسفتهم عن الفلسفة اليونانية . . وأن الكثيرين منهم قد اشتغلوا بـ «الكلام والتوحيد» . . فكانت قراءة من درس منهم الفلسفة اليونانية قراءة بعيون إسلامية وعقل إسلامى، وذلك من خلال محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين، أو الجمع بين أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ق . م] وأفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م] . . ومن خلال الانتقادات التى أوردها على المقولات اليونانية، أو الشروح والإضافات التى بثوها أثناء شروحهم على هذه المقولات .

إذا أدركنا ذلك، علمنا أن العلوم الطبيعية وعلوم الصنعة ـ التطبيقات والتقنيات ـ قد كانت أرض الوحدة الفكرية الإنسانية . . على حين تمايزت المعتقدات والشرائع والملل والمناهج والثقافات والآداب والتصورات الفلسفية للوجود ولمكانة الإنسان فى هذا الوجود . . أى أن الأمم والحضارات قد تمايزت فى التكوين النفسى، وعمران النفس الإنسانية . . بينما اشتركت فى علوم التمدن المدنى، وعمران الواقع المادى، أى العلوم الطبيعية والدقيقة والتجريبية وتطبيقاتها . . فكانت علاقة «العموم والخصوص» هى التى «تجمع» وأيضًا «تمايز» بين الأمم والحضارات . .

***

-٧-

الخـاتمـة

هذا هو الإسلام ـ كما تجلى، بالحقائق، من خلال هذه الإشارات والشهادات . .

* دين التوحيد، الذى يبلغ فى التنزيه قمة التجريد . . فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك .

* وهو المصدق لما بين يديه من الكتب والنبوات والرسالات . . والمصحح والمضيف والمستوعب لمواريث النبوات .

* وهو دين القيمة . . والبينة . . والعلم . . والبرهان . .

* وهو دين النور والاستنارة والتنوير بالله . . والرسول . . والقرآن . . والحكمة .

* وهو دين العدل . . مع الذات . . ومع الآخرين . . ومع من نكره . . وحتى مع الذين يقاتلون أهله . .

* ودين التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى كل عوالم الخلق والأفكار . . مع التوحيد للذات الإلهية . . التى ليس كمثلها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

* ودين الحرية فى الاعتقاد؛ لأن الإيمان به : تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، فلا سلطان عليه إلا الله . . ومن المحال أن يتأتى بالإكراه . .

* وهو الدين الذى تفرد بتكوين «الأمة» و«الدولة» و«الوطن» و«الحضارة»، التى تتنوع فى إطارها الشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والشرائع والملل والألوان والأجناس والعادات والتقاليد والأعراف . . فالوحدة فيها قائمة على التنوع، والتنوع فيها قائم فى إطار جوامع المشتركات .

* وهو الدين الذى جمع ـ فى مصادر المعرفة ـ بين عالمى الغيب والشهادة . . و ـ فى سبل المعرفة ـ بين العقل والنقل والتجربة والوجدان . . فامتزج فى ثقافة أمته «الشرعى» و«المدنى» و«الروحى» و«المادى» . . حتى لقد تدينت ـ فيها ـ الفلسفة ، وتفلسف الدين ! . .

* وهو الدين الذى مثل الإحياء العام . . للإنسان . . والأمة . . والحضارة . . وللمواريث العلمية التى أبدعها الأولون . . فكان إنقاذا لمواريث العلم الإنسانى من الضياع .

* وهو الدين الذى أدالت فتوحاته قوى الهيمنة والقهر والاستغلال ، فحرر الأوطان الشرقية . . وحرر ضمائر الشعوب . . وترك الناس ـ أحراراً ـ وما يدينون ، فكان المنقذ حتى للديانات التى لا يدين أهلها بالإسلام؟ . . بل والتى يجحد أهلها الإسلام الذى أنقذهم من الفناء ! !

* وهو الدين الذى تآخى فى ثقافته عالم الغيب والشهادة . . وآيات الكتاب الإلهى المسطور وآيات الكتاب الإلهى المنظور . . فكانت نظرته إلى «الطبيعة» باعتبارها «خليقة . . حية . . تؤمن بخالقها . . وتتجه إليه بالحمد والتسبيح» . . فكان إبداع حضارته مقترنًا بإيمان إنسانه . . وكانت التجارب والمنهج التجريبى مظهراً لعبقرية أمته فى ميادين العلوم .

* * *

وهنا يسأل الإنسان :

ـ إذا كان هذا هو الإسلام . . الدين . . والحضارة . . فماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه؟ . . حتى ولو لم يكونوا من المؤمنين بثوابته فى الاعتقاد؟؟ . .

ماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه . . والدارسين لحضارته . . ولتاريخ أمته؟! . . الإنصاف؟ . أم الافتراء؟! . .

* * *

الهوامش:

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ ـ ٢١ جمعها وحققها: د. محمد حميد الله الحيدر آبادى ـ طبعة القاهرة ـ سنة ١٩٥٦م.
(٢) ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.
(٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ ـ ١٢٨.
(٤) الغزالى ـ أبو حامد: [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ص ٦٠ ـ ٦٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
(٥) ابن عبد البر: [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
(٦) يوحنا النقيوسى: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
(٧) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢ ـ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.
(٨) الغزالى ـ أبو حامد: [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٥. طبعة مكتبة ومطبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
(٩) الجاحظ: [كتاب الحيوان] جـ١ ص ٢١٦، ٢١٧، تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ـ الطبعة الثانية.
(١٠) المصدر السابق: جـ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.
(١١) محمد عبده: [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
(١٢) الماوردى: [أدب القاضى] جـ١ ص ٢٧٤. طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.
(١٣) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٣٢.
(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٧٩.
(١٥) د. على فهمى خشيم: [الجبائيان: أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة طرابلس ـ ليبيا سنة ١٩٦٨م.
(١٦) د. فؤاد سيزكين: [مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٦.

(١٧) المرجع السابق، ص ٣٧ .
(١٨) ابن النديم : [الفهرست] ص ٨٩ . طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م .
(١٩) المصدر السابق : ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ .
(٢٠) المصدر السابق : ص ٣٥٤ .
(٢١) ابن عساكر : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ٥ ص ١١٩ ، ١٢٠ طبعة دمشق سنة ١٣٣١هـ .
(٢٢) ابن عبد ربه : [العقد الفريد] جـ٢ ص ٢٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .
(٢٣) انظر رد «فلهوزن» على هذا الرأى فى [تاريخ الدولة العربية] ص ٢٩٤ ـ ٣٠١ . ترجمة : د. محمد عبد الهادى أبو ريده . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .
(٢٤) ابن أبى أصيبعة : [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] ص ١٧١ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٥م ، والنقل عن : خليل داود الزرو [الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] ص ١٨٦ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١م .
(٢٥) ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى : [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦١ ، ٦٢ ، تحقيق : فؤاد سيد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م .
(٢٦) [الفهرست] ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
(٢٧) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦٥ .
(٢٨) المصدر السابق ، ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ٧٣ ، ٧٤ . و[الفهرست] ص ٢٥٥ .
(٣١) قدرى حافظ طوقان : [تراث العرب العلمى] ص ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م .
(٣٢) ابن رشد (أبو الوليد) : [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ سنة ١٩٩٩م .
(٣٣) [الفهرست] ص ٢٤٣ .
(٣٤) د. فؤاد سيزكين ، مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٣٥) [تراث العرب العلمى] ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ .
(٣٦) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٧٧ ، ٧٨ .
(٣٧) [تراث العرب العلمى] ص ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٤١٢ ، ٣٠٥ ـ ٣٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٤٤٦ .

***

المصادر والمراجع

* **ابن أبي أصيبعة**: [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] - طبعة بيروت سنة ١٩٦٥م.

* **ابن جلجل**: [طبقات الأطباء والحكماء] تحقيق: فؤاد سيد - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

* **ابن رشد (أبو الوليد)**: [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

* **ابن عبد البر**: [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

* **ابن عبد الحكم**: [فتوح مصر وأخبارها] - طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

* **ابن عبد ربه**: [العقد الفريد] - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

* **ابن عساكر**: [تهذيب تاريخ دمشق] - طبعة دمشق سنة ١٣٣١هـ.

* **ابن النديم**: [الفهرست] طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.

* **الجاحظ**: [كتاب الحيوان] تحقيق: عبد السلام هارون - طبعة القاهر - الطبعة الثانية.

* **خليل داود الزرو**: [الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.

* **د. صبرى أبو الخير سليم**: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] - طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

* **د. على فهمى خشيم**: [الجبائيان: أبو على وأبو هاشم] - طبعة طرابلس - ليبيا - سنة ١٩٦٨م.

* **الغزالى - أبو حامد**: [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] - طبعة مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - بدون تاريخ.

  [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ.

* **د. فؤاد سيزكين**: [مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] - مجلة «الثقافة» - الجزائرية - عدد مارس - أبريل سنة ١٩٨٦م.

* **فلهوزن - يوليوس**: [تاريخ الدولة العربية] ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

* **قدرى حافظ طوقان**: [تراث العرب العلمى] - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

* **الماوردى**: [أدب القاضى] - طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.
* **د. محمد حميد الله الحيدر آبادي**: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] - محقق - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
* **محمد عبده (الأستاذ الإمام)**: [الأعمال الكاملة] - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
* **يوحنا النقيوسى**: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل - طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

***

عوامل امتياز الإسلام

«شهادة غربية»

شهادة المستشرقة الألمانية

«سيجريد هونكه»

أما هذه الشهادة التى تأتى ضمن هذه الشهادات العلمية الغربية، المنصفة للإسلام، فهى للعالمة الجليلة، والمستشرقة الألمانية الشهيرة «سيجريد هونكه»، التى ولدت فى ٢٦ إبريل سنة ١٩١٣م، بمدينة «كيل» الألمانية - والتى تخرجت فى جامعات «كيل» و«فرايبورج» و«برلين».. والتى تخصصت فى الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات.

ولقد حصلت «سيجريد هونكه» على الدكتوراه من جامعة «همبولدت» - فى برلين سنة ١٩٣٩م - بأطروحة عنوانها «حول تأثير الأنماط الغربية فى ضوء فن الغزل العربى والألمانى».

وقامت بتدريس الفلسفة.. وعلم النفس الجمعى للشعوب.. وعلم الأديان المقارن.. واللغة الألمانية وآدابها.. وتاريخ القرون الوسطى.. فى كثير من الجامعات.

كما قدمت للمكتبة أعمالها الفكرية المتميزة، التى تخصصت فى دراسة الإسلام وحضارته، مقارنة بالحضارة الغربية والنصرانية.. ومن هذه الأعمال الفكرية:

١ - «شمس الله تسطع على الغرب» سنة ١٩٦٠م - ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة - وصدرت ترجمته العربية - بعنوان «فضل العرب على أوروبا» سنة ١٩٦٤م.

٢ ـ و «العقيدة والمعرفة» الذى صدرت ترجمته العربية سنة ١٩٨٧م.

٣ ـ و «الله ليس كذلك» الذى كتبته أوائل تسعينيات القرن العشرين ـ وصدرت ترجمته العربية سنة ١٩٩٥م.

٤ ـ و «قوافل عربية فى رحاب القيصر» سنة ١٩٧٦م ـ عن الصلات التاريخية بين العرب والألمان.

ولقد أسست «سيجريد هونكه» لمشروعها الفكرى ـ المقارنات الحضارية والدينية ـ سنة ١٩٧٣م رابطة حملت اسمها. . وتولت الرئاسة الفخرية لها.

وهى عضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بمصر ـ وحاصلة على كثير من الجوائز والأوسمة العالمية. . ومنها: جائزة وسام الفيلسوف «كانت» سنة ١٩٨١م، وجائزة الشاعر «شيللر» للألمان سنة ١٩٨٥م. ووسام الاستحقاق والتقدير المصرى من الطبقة الرفيعة فى العلوم والفنون سنة ١٩٨٨م.

***

وفى هذه الشهادة تؤكد الدكتورة «سيجريد هونكه» على:

١ ـ سماحة الإسلام. . فى مقابل التعصب الأعمى للكهنوت النصرانى الغربى. .

٢ ـ والفهم الغربى الخاطئ للجهاد فى الإسلام.

٣ ـ والنموذج الإسلامى المتميز لتحرير المرأة وحريتها.

٤ ـ وتميز العقل اليونانى بالطبيعة التأملية التجريدية. . المحتقرة للعمل اليدوى، وللتجربة فى الطبيعة، الأمر الذى جعل هذا العقل

لا يتخذ من الطبيعة مصدراً للمعرفة، ولا من التجريب أداة لاختبار صدق المعرفة.. فوقفت المعرفة - لديه - عند العقل، لا الواقع، والفلسفة، لا العلم..

٥ - وتميز العقل المسيحى الأوروبى بالموقف المعادى من معرفة الطبيعة، التى عَدَّها خطيئة.. وشهوة مماثلة لشهوة الجسد الكامنة فى الحواس.. كما عَدَّ العقلانية إثما.. وحصر المعرفة فى اللاهوت والإنجيل وحده.. فالمعرفة.. عند هذا العقل النصرانى الأوروبى - ليست فى هذا العالم.. والبحث عنها فى غير الوحى خطيئة وإلحاد.

٦ - ورفض المسيحية الأوروبية للفكر اليونانى وتراثه - على حين أحياه الإسلام..

٧ - وتميز العقل الإسلامى والعربى بـ:

- التسامح والتفاعل مع المواريث الحضارية.. وإنقاذ هذه المواريث من الضياع.

- وأثر التسامح الإسلامى فى إبداع الدراسات المقارنة.

- وتميز الحضارة الإسلامية بالإبداع فى العلوم المدنية والحضارية منذ فجر ظهور الإسلام.

- والإبداع الإسلامى للمنهج التجريبى، كأثر من آثار الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة.. الأمر الذى ميز العلم الإسلامى، وحقق الإضافات التى تجاوزت العلم اليونانى.. وصححته بالتجربة.. التى نهضت على أساسها أوروبا نهضتها الحديثة.

- وأثر التجريب فى العلم الإسلامى على نشأة المنهج الاستقرائى، المنطلق من الجزئيات إلى الكليات والقانون.

ـ وأستاذية العلماء المسلمين لأوروبا الحديثة .

٨ ـ والدور العلمى التجريبى الإسلامى فى انتصار العقل العلمى الأوروبى الحديث على النظرة اليونانية والنظرة المسيحية للطبيعة والتجريب .

ـ وتبنى العلم الأوروبى للنزعة الإيمانية فى فلسفة العلم الطبيعى ، على النحو الذى سنته فلسفة العلم فى حضارة الإسلام .

ـ وشذوذ العلم الوضعى الغربى ـ المادى ـ عن إسلامية العلوم .

٩ ـ كما تشهد «سيجريد هونكه» لضرورة تميز النهضة العربية المنشودة بمكونات الهوية الحضارية الإسلامية المتميزة . . دونما تغريب واغتراب . . ودونما عزلة وانغلاق . .

نعم . تشهد هذه العالمة الجليلة . . على هذه الحقائق . . حقائق الامتياز الإسلامى . . والتميز الحضارى الإسلامى . . فتقول :

* * *

- ١ -

سماحة الإسلام

«إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذى نما فى ثرى تلك القارة تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان لهما أبلغ الأثر فى ازدهار إسپانيا العربية - على العكس من اضطهاد «إيزيدورس» لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين - لقد سمح لضروب الفكر على تباين المفكرين واختلافهم أن تتلاقح وتثمر فى تساوق سام، وانسجام تام، دون أن يدب إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها: لا فرق بين العرب والقوط، والبربر والمصريين، واليهود والسوريين، وسكان أيبيريا والفرس، ولقد انسحب ذلك على المسلمين - وقد كانوا الأغلبية - وعلى غيرهم من اليهود ومن النصارى غير مغبونين».

«إن العرب هم الذين أبدعوا إبداعا، يكاد يكون من العدم، هذه الروعة الحضارية الشامخة فى إسپانيا، تلك الجنة الفريدة الجمال لأساتذة فن المعمار، والمغنين والمغنيات، والشعراء والشاعرات، والعلماء، بل جنة المرأة، التى نسج الغرب حولها صوراً خيالية شيطانية غاية فى الوحشية، دون أن يكون له أدنى معرفة، أو حتى إلهام طفيف ضحل بها».

«إن الكتب، آنذاك، كانت نادرة الوجود شمالى جبال البرانس، حتى إنها كانت فى الأديرة تثبت بالسلاسل، بينما ذهب رجال الدين النصارى آنذاك إلى أن طلب العلم والمعرفة، بعدما أنزل الإنجيل، تجديف وكفر بالله» مثلما زعم من قبل «ترتوليان» (١٦٠ - ٢٢٠م) و«أغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠م) اللذان لعنا حب الاستطلاع أو «الفضول المريض»، واصفين إياه بأنه «واحدة من أخطر صور الوسوسة والضلال»، مما يسلم الفضولى إلى الملاحقة والتعذيب..».

* «وبينما عاشت النصرانية فى ظل الحكم الإسلامى قرونا طوالا - فى الأندلس . . وفى صقلية . . وفى البلقان - فإن «انتصار النصرانية على الإسلام - فى الأندلس سنة ١٤٩٢م - لم يَعنْ سوى طرد المسلمين واليهود واضطهادهم وإكراههم على التنصر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التى قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية دينا، والحرق العلنى فى احتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية . .

ولم تلغ محاكم التفتيش إلا فى سنة ١٨٣٤م . . ».

«لقد كفلت معاهدة السلطان الكامل (٦١٥ - ٦٣٥هـ ١٢١٨ - ١٢٣٨م) - ابن أخ صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤ - ٥٨٩هـ ١١٦٩ - ١١٩٣م) - مع القيصر فريدريك الثانى (١١٩٤ - ١٢٥٠م) المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين والاحترام المتبادل، والحرية الكاملة لليهود والنصارى والمسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية فى أنحاء الأرض المقدسة كافة كما شاءوا . . ».

* «ولقد كتب بطريرك القدس «تيودوسيوس» فى أوائل القرن الحادى عشر - إلى الأسقف «أجناتيوس» - فى بيزنطة - يقول: «إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويوقرون قساوستنا ورهباننا، ويجلون قديسينا . . ».

* «بينما أصدر كبير وعاظ الحروب الصليبية «برنارد كليرفوكس» أمره إلى المحاربين الصليبيين:

«إما التنصير وإما الإبادة»!

«ووصف المؤرخ الأوروبى «ميشائيل درسيرر» مذبحة المسلمين فى القدس سنة ١٠٩٩م - على يد الصليبيين - وكيف كان البطريرك نفسه يعدو فى زقاق بيت المقدس، وسيفه يقطر دما حاصدا به كل من وجده فى طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ فى غسل يديه تخلصا من الدماء اللاصقة بهما، مرددا كلمات المزمور التالى: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقا إن للصديق مكافأة، وإن فى الأرض إلهًا يقضى». (المزمور ٥٨: ١٠ - ١١) - ثم أخذ فى أداء القداس قائلاً: إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب»!

*«وعندما احتل الصليبيون «دمياط» ـ الميناء المصرى ـ بعد الاستيلاء على حصنها ـ [٦١٥هـ ١٢١٨م] أبادوا جميع من بها، بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة . .

فلما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة ١٢٢١م أكرم أسراهم . . ولم يقتص منهم : العين بالعين والسن بالسن، وإنما أطعمهم فى مسغبة أربعة أيام طوالا، مرسلا إلى جيشهم المتضور جوعا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى . . وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى ـ عالم الفلسفة اللاهوتية «أوليفروس» ـ من كولونيا نهر الراين بألمانيا ـ فكتب يقول للملك الكامل :

«منذ تقادم العهود، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، وبخاصة إزاء أسرى العدو اللدود. ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدا طاغية، ولا سيدا داهية، وإنما عرفناك أبا رحيما، شملتنا بالإحسان والطيبات وعونا منقذا فى كل النوائب والملمات، ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله؟

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعا، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بها من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان . . » .

*«وحين تمكن صلاح الدين الأيوبى من استرداد بيت المقدس(٥٨٣هـ١١٨٧م) التى كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل(٤٩٢هـ ١٠٩٩م) بعد أن سفكوا دماء أهلها فى مذبحة لا تدانيها أى مذبحة وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربا المثل فى التخلق بروح الفروسية العالية .

وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أى التزام خلقى تجاه كلمة الشرف أو الأسرى . . فالملك ريتشارد قلب الأسد(١١٥٧-١١٩٩م) الذى أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربى أن حياتهم آمنة، إذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعا . . »![1]

* * *

- ٢ -

الجهاد الإسلامي

«إن الجهاد الإسلامى، ليس هو ما نطلق عليه ـ ببساطة ـ مصطلح الحرب المقدسة.

فالجهاد ـ كما يذكر الألمانى المسلم أحمد شميدة ـ «هو كل سعى مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام فى أنفسنا، حتى نتمكن فى هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومى المتجدد أبدًا ضد القوى الأمارة بالسوء فى أنفسنا وفى البيئة المحيطة بنا عالميًا. فالجهاد هو المنبع الذى لا ينقص، والذى ينهل منه المسلم مستمدًا الطاقة التى تؤهله لتحمل مسئوليته، خاضعًا لإرادة الله عن وعى ويقين. إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية للدفاع بردع القوى المعادية كافة التى تقف فى وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعى إسلامى فى ديار الإسلام» . . .

واليوم، وبعد انصرام ألف ومائتى عام، لا يزال الغرب النصرانى متمسكًا بالحكايات المختلقة الخرافية التى كانت الجدات يروينها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية بعد موت محمد ﷺ نشرت الإسلام «بالنار وبحد السيف البتار» من الهند إلى المحيط الأطلنطى. ويلح الغرب على ذلك بالسبل كافة: بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وفى الجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفى الرأى العام، بل فى أحدث حملات الدعاية ضد الإسلام.

. . . ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. تلك هى كلمة القرآن الملزمة ـ كما ترد فى الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة ـ. **فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامى، وإنما بسط سلطان الله فى أرضه، فكان للنصرانى أن يظل نصرانيًا، ولليهودى أن يظل يهوديًا، كما كانوا من قبل، ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم. وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم . .**

لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصارى واليهود - هم الذين سعوا سعيًا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين، ولقد ألحوا فى ذلك شغفا وافتتانا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماء عربية وثيابا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربى، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين. لقد كانت الروعة الكامنة فى أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربى، والسمو والمروءة والجمال - وباختصار: السحر الأصيل الذى تتميز به الحضارة العربية، بغض النظر عن الكرم العربى والتسامح وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم.

لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى، فقد كانوا شهود عيان فى الأندلس لقوة جذب المد الروحى والفكرى العربى، الذى سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعا وعن طيب خاطر، يشهد بذلك أسقف قرطبة (القارو) الذى راح يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة تصور بلواه:

«إن كثيرين من أبناء دينى يقرءون أساطير العرب، ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدحضوها، وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم. وأين نقع اليوم على النصرانى - من غير المتخصصين - الذى يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ بل من ذا الذى يدرس منهم الأناجيل الأربعة، والأنبياء ورسائل الرسل؟..

واحسرتاه!. إن الشبان النصارى جميعهم اليوم، الذين لمعوا وبزوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربى! إنهم يتعمقون فى دراسة المراجع العربية باذلين فى قراءتها ودراستها كل ما وسعهم من طاقة، منفقين المبالغ الطائلة فى اقتناء الكتب العربية وإنشاء مكتبات ضخمة خاصة، ويذيعون جهرا فى كل مكان أن ذلك الأدب العربى جدير بالإكبار والإعجاب! ولئن حاول أحد إقناعهم بالاحتجاج بكتب النصارى، فإنهم يردون باستخفاف، ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم!..

وامصيبتاه!. إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم، فلا تكاد تجد اليوم واحدًا فى الألف يستطيع أن يدبج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء عدد من يحسن منهم العربية تعبيرا وكتابة وتحبيرا، بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية، حتى لقد حذقوه وبزوا فى ذلك العرب أنفسهم»....

* * *

إن سحر أسلوب المعيشة العربى ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسى «ڤولتير الشارتى»: «**وها نحن أولاء الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين**»!

ثم راح يصور أحاسيسه وقد تملكه الإعجاب بالسحر الغريب لذلك العالم العجيب بما يعبق به من عطر وألوان، تبعث النشوة فى الوجدان. ثم يتساءل بعد ذلك مستنكرا: «**أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب؟! بعدما أفاء الله علينا، وبدل الغرب إلى الشرق؟!**»[٢].

بهذا انتشر الإسلام.. وليس بالسيف.. أو الإكراه..

* * *

ـ ٢ ـ

التحرير الإسلامى للمرأة

* «إن الرجل والمرأة فى الإسلام يتمتعان بالحقوق نفسها، من حيث النوعية، وإن لم تكن تلك الحقوق هى ذاتها فى كل المجالات . .

. . . وفى الحياة الزوجية، التى يهتم بها القرآن اهتماما رئيسيا، تنظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها، وذلك أن كبرياءها تأبى عليها الامتثال والولاء والطاعة إلا لمن ترفع إليه بصرها إعجابا وتقديرا . . فالعلاقة بينهما تخضع للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء، ولا تعنى تلك «الطاعة» عبئا ينوء المرء تحته معانيا، بل إن المرء يتمتع بخضوعه هنا، دون الحط من قدره، بل إنه ليبلغ خضوعه أسمى الدرجات، سواء فى عبوديته لله، أو فى حبه من يحب . . وهذا هو الذى عبر عنه ابن حزم الأندلسى (٣٨٤ـ٤٥٦هـ ٩٩٤ـ١٠٦٤م) فى كتابه «طوق الحمامة» حيث يقول: «ومن عجب ما يقع فى الحب من طاعة المحب لمحبوبه . . ولقد وطئت بساط الخلفاء، وشاهدت محاضر الملوك، فما رأيت هيبة تعدل هيبة المحب لمحبوبه . . وهذا مكان تتقاصر دونه الصفات، وتتلكن بتحديده الألسنة . .» .

* «لذلك، فعلى المرأة العربية أن تتحرر من النفوذ الأجنبى . . وإذا أرادت طى صفحة الماضى بخلعها للحجاب، فلا ينبغى عليها أن تتخذ المرأة الأوروبية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدى بفكر عقائدى مهما كان مصدره؛ لأن فى ذلك تمكينًا جديدًا للفكر الدخيل المؤدى إلى فقدها لمقومات شخصيتها، وإنما عليها أن تتمسك بهدى الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتى عشنه منطلقات من قانون الفطرة التى فطرن عليها، وأن تلتمس العربية لديهن المعايير والقيم التى عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع مطلبات العصر

الضرورية، وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة المتمثلة فى كونها أم جيل الغد العربى، الذى يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه».

*«لقد طبع التحدى الذى واجه الفلسطينيات موقفهن بطابع متميز . . فبينما يعانى آلاف الرجال ذل السجون، كان عليهن أن يقمن وحدهن بأعباء الأسرة، وتربية الأطفال وتنشئتهم، أو حماية أنفسهن وأسرهن من الفتك الذريع واغتصاب الزبانية بوحشية السادر . وهكذا لم يكن دور الفلسطينيات جديدا فحسب، وإنما نشأن وشببن ليتولين أدوارا قيادية فى المجتمع، ولقد شاركن مشاركة إيجابية فى حركة الانتفاضة - أو قل جهاد التحرير - على كل المستويات الممكنة.

إن نساء فلسطين العربيات يكتبن بأنفسهن التاريخ اليوم، وهن اللاتى يحملن مسئولية تقرير المصير فى التحول الاجتماعى. فهن يرأسن المؤتمرات الشعبية، وينظمن اللجان والهيئات التعاونية والإنتاجية ويوفرن أماكن العمل والوظائف المختلفة ويشغلنها، وهن فدائيات مجاهدات شهيدات ينتهك الغاصب كرامتهن، ويزج بهن فى السجون ويمعن فى تعذيبهن. ولا ريب فى أن الفلسطينيات سوف يسهمن فى المستقبل إسهاما خطيرا فى تقرير مصيرهن بأنفسهن، ومصير فلسطين. وسوف تتحدد حرية جميع الأرض المحتلة فى ضوء تحقق المساواة وتحرير المرأة»(٣).

* * *

- ٤ -

العقل اليونانى

* «إن العقل اليونانى الإغريقى عقل تأملى . . يرتاب، ويزدرى، ويتجنب الخبرة الملموسة، والعمل الذى يتطلب الملاحظة المكثفة، مثلما ينكر على الرجل الحر العمل اليدوى الموكول للعبيد فقط فى الحقول، متمما بذلك تحليقه شطر مملكة الأفكار العامة والقوانين. لذا، فإن اليونانى يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة، ولأشكال الفضاء المثالية، فى الوقت الذى يترك مزاولة الأعمال الحسابية إلى البائع فى السوق. . وهذا التصنيف ينطبق على المراتب الاجتماعية بدءا بالهيئة الحاكمة، ونزولا إلى المهن المبتذلة، كأصحاب الحرف والمهندسين ومهندسى البناء والفنيين وختاما بالعبيد. . ».

* «والمادة (الطبيعة) لدى حكماء اليونان: نقيضة لله تمامًا . . والحركة والصيرورة والتحول هى علاقة اللاكمال».

«ورجال من أشباه «هيبارش» (١٢٥-١٩٠م) و«آريستارش» (٣١٠-٢٥٠ق. م) و«أرخميدس» (٢٨٧-٢١٢ق. م) و«حيرون» (حوالى ١٠٠ سنة ق. م)، نادرا ما ينجحون فى إقامة مدرسة فى بيئة ما زال العمل الذهنى فيها يُعَدّ من مهن الأحرار، ويترفع فيه عن قذارة العمل اليدوى، الذى لا يسند إلا للعبيد، وبالتالى لا لزوم إلى التقنية فيه. . ».

«ولقد اعترف «هوميروس» (القرن التاسع ق. م)، بعد صراع طويل مع نفسه، وبندم شديد، أنه طرح جانبا محاولة الغوص فى الحكمة اللاروحية لكتابات الوثنية، حيث قال: «أيها السيد، لو عدت إلى قراءة تلك الكتب الأرضية مرة أخرى، فإنما أنكر بذلك وجودك»!

«وبقدر ما حركت الطبيعة حكماء الإغريق، بدءا بـ «تاليس» (٦٢٤-٥٥٠ق. م) وانتهاء «بهيراقليط» (٤٨٣-٥٤٤م)، كان تفاعل «أفلاطون» [٤٢٧-٣٤٧ق. م] معها

ضعيفا، وجاء فى سن متأخرة. و الفلاسفة الثلاثة متفقون على ذلك تقريبا، إن الحواس لا تقدر على تمييز (معرفة) الوجود الصادق؛ لأنها ـ الحواس ـ تخدع الإنسان، إنها لا تدرك غير الظاهر، الشيء المتقلب فى تياره على الدوام، مما كان، عبر ما هو كائن، فيما يئول إليه. إنها مصدر المعرفة الضبابية غير الصافية. ونفس النقص الذى يلازم المعرفة الحسية البشرية، يلتصق بعالم الظاهر المضطرب، المبتعد، المتلون، المتداخل، الهائج النامى، المتحرك، المنتظم والمضطرب، دائم التغير. فظيعة العفونة فى «المادة»! . .

ومن خلال اكتشاف عالم المادة والطبيعة، لا يتسنى الحصول على المعرفة. إن التعرف الفعلى على أى شيء لا يتم إلا حين يغادر الإنسان الجسد؛ لأن الاتحاد بالجسد لا يسمح للروح بالعثور على المعرفة. . ».

«وفى الأفلاطونية الجديدة كان محب الجمال، صاحب الشعور المرهف، يخجل إن هو ملك جسدا. . لذا، فإن الروح ذاتها تصبح شريرة حالما تلامس المادة، تُلَوَّث بها وتُلَطَّخ، وتُصاب بالشهوة» . .

«ولقد ابتعد أرسطوطاليس (٣٨٤ـ٣٢٢ق. م) عن الحقيقة لدى تعرضه لطبيعة الطيور؛ لأنه لم يمارس صيد الطيور قط».

«لقد رسَّخ أرسطوطاليس الفلسفة، وأيقظ متعة العقلانية، كما أيقظ ولعًا ذهنيًا فاترًا فى فن البرهنة والمحاجة والجدلية المصاغ منطقيًا، كالتحليل والتمييز، والمفاضلة، والاستنتاج، والتصنيف، والتى تحولت، بالنظر لبقائها بدون مضمون، إلى صَنَع هشة. . ».

«لقد وضع أرسطوطاليس نفسه ـ كمعلّم للمنطق والجدل ـ وهو الوحيد الذى حكم العقل وحده، فاتخذ القوانين المنطقية المجردة وسيلة لتأمل الله والعالم».

«لقد أعار أرسطوطاليس اهتمامًا لكل التفاصيل فى حقل المعرفه الحيوانية. لكن مقومات العلم اليونانى لم تتبدل بذلك. **إن الفلك والفيزياء، ونظرية الموسيقى، والكيمياء، والطب، وعلم الحيوان، والنبات اليونانية، تبقى على الراجح فلسفية، وبذلك يونانية المنطق. لقد كانت الحقيقة لدى الحس اليونانى المتأمل، ليس مما تَعُدّه الحاسه واقعا، بل واقعا عقليا فقط. .**»[٤].

-٥-

العقل المسيحى الأوروپى

* «يقول«بولس» : «لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله . . والرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة»!

«لقد حارب آباء الكنيسة العلم والبحث بحجة أن ذلك«يجعلهم يترددون فى الخطيئة» . . مرددين بذلك ما أكده لهم ترتوليان»، حيث زعم أنه«بعد مجىء عيسى» لا يحق لهم«أن يكونوا محبى استطلاع أو أن يبحثوا فى العلوم، ففى الإنجيل الكفاية» .

ولذلك، فلا الروم البيزنطيون، ولا فرق النصارى، سواء الأقباط أو النساطرة، أو القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، هم الذين سعوا إلى إنقاذ حضارة إغريق هلينية- التى كان بعضها قد أبيد إبادة تامة على أيدى متحمسى النصارى النشطين فى مهاجمة العلوم . .» .

* وفى النصرانية : «الإيمان هو ألا ترتاب، وألا تسأل» . .

«ولقد وصف الأب الروحى «تيرتوليان» فضول العقل بأنه إثم، فضول فاحش . . أو ليست الشهوة، وهى الأكل من شجرة المعرفة، بقصد الارتقاء إلى مستوى الله، هى الخطيئة التى هبطت بالإنسان إلى الأرض؟ فمن الخطيئة الأولى فى الجنة، حظر الإنسان على نفسه بعدها أن يدعى معرفة ليست من حقه ـ ذلك الذنب! . . وكان حريا به أن يسعى إلى النجاة بروحه، بدلا من أن ينحرف بالرغبة الجامحة، الخاطئة فى معرفة المزيد! . .

أو لم يصنف الله المعرفة فى الدنيا بأنها غرور؟ ونهى بولس الرسول عن أى نوع من أنواع البحث عن الحقيقة فى هذا العالم؟ لقد جاء : «سأبدد حكمة الحكماء، وأنبذ معرفة العارفين» . .

فإلى جانب الطريق الوحيدة التى تزكى الروح، كان ثمة طريق أخرى خاطئة ملحدة، أى البحث عن الحقيقة ـ فى مكان آخر غير ما أوحى به من السماء». .

*«لقد تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية (وقد عُدَّ ذلك من أخطر صيغ المحاولة) لاستقاء المعرفة. **هذا ما قدمه «أوغسطين» مرة وإلى الأبد: «. . لأنه فضلا عن شهوة الجسد التى تكمن فى متعة حواسنا واستمتاعنا ـ وعبيدها مآلهم إلى الفناء حين ينأون عنك ـ يحيا فى النفس من خلال نفس الحواس ميل وفضول. . يُسَيَّج بقناع العلم والحكمة. . ».**

ومن هذا الفضول القاتل، الذى ينشأ من هَوَش نحو حب المعرفة والابتكار، رغب الناس المتطلعون إلى اكتشاف الطبيعة ـ ولئن كانتْ هذه المعرفة ليست ذات قيمة لهم ـ فى الاكتشاف لمجرد الرغبة فى المعرفة، وانصرفوا إلى الاهتمام بمسار الكواكب بدلا من العناية بشفاء روحهم المذنبة التى تحدق بها الأخطار. ولقد أطلقوا على ذلك أيضًا، سوء استعمال قوى العقل، إن هو عُنى باستكشاف الطبيعة، بدلاً من التوجه إلى تعاليم الدين الموحى به. . ».

«وكما أراد «أوغسطين»: نشأ بدافع الفضول المريض، مجرد النزعة إلى التجربة والابتكار، وبها ظهرت إحدى أخطر صيغ التجربة».

«وكما قال بولس الرسول: «يوجد مكتوب: أريد أن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء. . وإن الغباء الموجود فى الوجود اختاره الله. وهذا يسىء إلى الحكماء»!

«أينما وضعت المسيحية قدمها، فى الإسكندرية وبيزنطة، فى اليونان وروما، وفى فرنسا وبريطانيا، أدت إلى تقلص مروع للثقافة».

«لقد فصلت المسيحية فصلاً مطلقًا بين الحياة الأخروية العلوية، والدنيوية، الأرضية المكتظة بالنقائص. وكل ما هنالك قابل للقسمة بعمق، وتُلْقَى بينهما العداوة بلا أمل للتوفيق: الله والعالم، الروحى والدنيوى، والروح والجسد، الرجل والأنثى. لقد تعلموا ذلك من أوغسطين أساسًا».

*٣«ولم يكن لدى المسيحية، كهدى سماوى، أسئلة توجهها إلى العالم، ولقد سمحت للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة إليها:

- أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هى السبب فى إنزال الخطيئة إلى العالم؟

- أو لم يصف الله حكمة العالم بأنها غباء؟ «ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة».

وإلى جانب الطريق الروحية، الوحيدة الموصلة للروح، إلى الله، عُدَّ كل طريق للبحث عنها فى أى مكان آخر عدا الوحى خاطئًا مارقًا . أن تكون محبًا للاطلاع، وأن تبحث بعدما بُشِّر بالإنجيل أمران جعلهما «تير توليان» و«أوغسطين» ورئيس أساقفة «تمبير» إثمًا عظيمًا وخطيرًا».

«ولقد شهَّر الراهب «أبسالوم» - من دير سانت ڤيكتور - بالفضول الكافر المتزايد نحو معرفة شكل الأرض، وطبيعة عناصرها، وموقع النجوم، وطبيعة الحيوانات، وقوة الرياح، وحياة النباتات والديدان».

«إن الديانة المسيحية السماوية، لم تكن خالية الوفاض فقط من أسئلة توجهها إلى العالم؛ لأن مشيئة الله ليست موضع سؤال، بل لأنها فضلاً عن ذلك غير قابلة للحساب، وفى رأيها: لم يكن ثمة باعث، بل ولا حق أيضا فى تقصى الأسباب».

واستنادا إلى خلفية الفكرة المسيحية عن العالم (صورته)، كما رسمها اللاهوتيون طبقا للإنجيل، ومؤازرة من خادمهم - سواء بأوغسطين أو أفلاطون، أو الأفلاطونية الجديدة، أو الفلسفة الأرسطوطاليسية - فإنه لم يكن بالإمكان قط نشوء علم طبيعى. لماذا؟

إن الثنائية المسيحية عملت على رفد الطبيعة بنظام خارجى، عن طريق إله أخروى، دخل فى هيئة غيبية سواء أكان بمعجزة، بالرحمة أو العقاب، بتقمص صورة إنسان، فى عالم أبدى تسيطر عليه العفاريت، وبعد أن انسحب، ما انفك يتدخل يوميًا من خلال سر الأقداس، ومن خلال تقبل الصلوات والجزاء والأعمال الخيِّرة . .

ولم يكن للعلم أن يتقدم فى ظل الثنائية الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة، طالما أن العالم المنظور للطبيعة السماوية والأرضية هو لا شىء، مجرد ظل واهن لعالم الفكرة، وأن كل مجهود يبذل لاكتشافها عبث، لا يستسيغه العقل، كما قال أفلاطون: «يجب،

بدلا من ذلك أن ننكب على المهام المجردة، سواء فى الفلك أو الرياضيات والأجرام السماوية، إذا ما طمحنا بصدق إلى فهم الفلك».

*ولقد جاء فى مرسوم رئيس أساقفة باريس «تيمير» بالحاد «سيجر - بارابانت»: «**إن ما هو صحيح فى نظر العقل، قد يكون خطأ فى نظر العقيدة**».

*«وإن انصراف أوروبا ذات النشأة المسيحية إلى الله والنفس، فى ذات الوقت الذى تم فيه إعطاء الطبيعة الصبغة الشيطانية، وتلحيد المحيط، أدى إلى تخلف الثقافة، وإلى الركود العقلى إلى درجة العقم. وبدافع الازدراء لأعمالهم اليومية غير المفيدة، انتقد «أيوسيبوس - Esusebius» الباحثين فى مصر، قائلاً:

«قليلاً ما نفكر فى أشيائهم، وتيمم روحنا شطر أشياء أفضل».

«**حدث هذا فى الوقت الذى بلغ فيه العالم الإسلامى مستوى عريضًا على طريق تطوير العلوم الطبيعية.. انطلاقًا من الحافز الدينى على النظر فى ملكوت السموات والأرض**.. لقد خلق العرب الفلك خلقًا جديدًا.. ولقد ظهر بينهم فلكيان عظيمان يسمى كل منهما «عمر»، وقد جلسا يومًا من الأيام عند عمود مسجد من المساجد، وأمامهما كتاب الماجسطى، فعبر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا، وسألوهما: ماذا يدرسان؟ فأجابا: «نحن نقرأ - أجاب أحد العمرين -: تفسير قوله - تعالى -: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨].

*«لقد حرمت الكنيسة طرق المداواة الجديدة باعتبارها شعوذة وخرافات باطلة، وظلت ستمائة سنة بحالها مشلولة، دون المضى قدمًا فى تطوير الطب وتوظيفه فى خدمة الإنسان.. وكان الصليبيون فى حملة «دمياط» الصليبية (١٢١٨ - ١٢٢١م) يؤثرون - علاج جراحهم لدى أطباء خصومهم العرب».

*«ولقد عبر القرافى» (٦٨٤هـ ١٢٨٥م) - فى سياق الأسئلة الجريئة - عن ذلك، فقال:

«يحرص اليهود والنصارى على القول بأن النُّصب المقدسة تذرف الدمع، ومن أثدائها ينضح اللبن»!

على هذا النحو احتقر العربى المتنور أمثال هذه الخزعبلات، فيما قدر عاليا أصحاب الرأى المشابه فى المسائل التى تتعلق بالكائنات فى الطبيعة، الذين هتكوا حجاب المعجزة الذى غطى فى أوروبا كل شىء».

* «لقد قرأ «ألبرت الكبير» (١١٩٣-١٢٨٠م) شيئا حول الجبر والهندسة، وألّف كتابين عن الحساب كما تعلمها على يد الإخوة موسى الثلاثة. محمد بن موسى بن شاكر (٢٥٩هـ ٧٨٣) وأحمد بن موسى بن شاكر (كان حيًا قبل ٢٥٩هـ-٨٧٣م) وحسن موسى بن شاكر (٢٠٠هـ-٨١٥م). وثابت بن قرة (٢٤٨-٢٨٩هـ ٨٦٢-٩٠١م)، ويحافظ من العرب اهتم بدراسة السكونيات والميكانيك.. وتطلب الأمر من هذا الرجل العنيد.. أن يبذل جهدًا كبيرًا من أجل الحصول على ترخيص استثنائى يخول له حق التعاطى والتعامل مع الفلاسفة الوثنيين (المسلمين) بوساطة من رؤسائه، الذين حرّموا المضى بالانحراف من خلال الاحتكاك بأولئك الكفرة (المسلمين) مرة وإلى الأبد».

«ولقد نص مرسوم سنة ١٢٢٨م الكنسى: «إن على أعضاء الطائفة ألا يدرسوا الفلاسفة الملحدين.. وعليهم أيضًا ألا يتعلموا الفنون الحرة إذن ولا المبادئ الأولية أيضا كالحساب والتعداد، وحساب الأعياد الكنائسية، وأن استثناء خاصًا منح لبعض الشخصيات».

«وكان فلاسفة اللاهوت عندما يصل إلى علمهم أن شخصًا ما يبحث، يرفعون عقيرتهم: إنه ملحد!.. لأنه يطالب بحق الفهم، وبالحق فى معاينة وتحليل ادعاءات السلطات.. وحين يعثرون على شىء غير مدون فى مكان ما، حينئذ يطالبون بإلصاق تهمة الهرطقة.. لقد نظرت الكنيسة إلى العلم بتقزز واشمئزار، وحذّرت وخوّفت الطامحين فى المعرفة الإنسانية..

ولا عجب أن احتل مؤلف «سكوت إريوچينا» (٨١٠-٨٧٧م) الرئيس الرائع، النابع عن ألمعية فى العقل، وعمق فى التفكير، والذى يدرو حول **[تسخير الطبيعة]**- يحتل المرتبة الأولى فى قائمة الكتب التى حكم عليها بالمروق والمطاردة من قبل رابطة الرهبان، وعُدَّ فى المقدمة، والأكثر قدمًا فى الإلحاد حتى سنة ١٩٤٨م، كما جاء فى آخر إصدار رسمى شهر به دون هوادة.. لقد اتهم بأنه صبى طائش، وأكبر مفتر بالإلحاد الجنونى والحجج الشيطانية المارقة، آثم، بشع، كافر بالله».

«إن حكمًا باللعنة صدر حول كتاب (حول الطبيعة) لإريوچينا من (١٢٠٩م) - ومنع من الأديرة وجمعت سائر النسخ المتوافرة وأحرقت ومن احتفظ بنسخة منه عرض نفسه للطرد من الكنيسة وللحكم عليه أمام الرأى العام بالإلحاد».

«وعند «إريوچينا»، فإن الألوهية التى لا تُدْرَك، هى التى تخلق الطبيعة، من حيث يخلق فيها كل شىء ذاته فى خلق دائم، إن الله يبسط ذاته فوق كل شىء مثلما يكمن فيه، ومنه وبه كل كائن حى، والله هو الذى يسع كرسيه السموات والأرض، الفعال لكل شىء، وبدونه لا يتم شىء، ولا شىء سواه يمتد؛ لأنه هو المكان والمحيط لكل شىء. كل شىء من الله، والله فى كل شىء، ولم يخلق شىء من هباء، بل منه وبه قد صار..

إن ما ذكر هنا يناقض كلية سائر المعتقدات المسيحية فى الخلق، ويناقض الأفلاطونية، والأفلاطونية الجديدة، والأرسطوطاليسية».

«ولقد استخلص «إريوچينا» أن الطبيعة لم تعد الأسفل، المضاد لله، بل إنها خلقت وسخرت للإنسان.. إن لها قيمة، وكينونة وحركة فى ذاتها.. لقد تحررت الطبيعة لتصبح موضوع البحث العلمى».

* «وكان أفلاطون قد شدد على استحالة المعرفة بواسطة الحواس.. واجتمعت الكنيسة والأفلاطونية والأرسطوطاليسية على وصف الأرض وما يعيش عليها كبؤس وضيع، وشبح مرتم فى النتانة، ومادة معتمة، فوضوية، فى مقابل عالم فوقى مثالى، علوى، خليق بالطموح».

* «لقد كان الله، فى نظر القرون الوسطى - الواقع تحت التأثير الشديد للأفلاطونية الجديدة - هو: المطلق والسكون الأبدى اللامتحرك. فى حين كانت الحركة، على الطريقة الأوروبية، بمثابة شىء ردىء يبعث على الغيظ.. وهكذا قوبل كل تقدم باستنكار، وأصبحت كل محاولة لتغيير الحالة الراهنة وإحلال شىء جديد محلها، أقرب ما يكون إلى الإثم..

وفضلاً عن الخوف من التحديث، عم ازدراء العمل اليدوى الذى جعل العقلانيين يفضلون التعامل مع الأدوات اليدوية العقلية الخالصة على المادة الوضيعة سهلة التناول..

أو لم يعد «توما الأكويني» (١٢٢٥ـ ١٢٧٤م) إلى الأذهان تفاهتها إبان الخصومة في القرن ١٣؟ في هذه النقطة أيضًا يتفق الفكر المسيحي واليوناني: «إن أدنى قدر يمكن لأحد أن يلم به عن الأشياء الواقعة تحت نظره، أجدر بالطموح من إلمامة معنية بالأشياء التافهة».

***«لقد ألح الإنجيل على خطيئة آدم، مبينًا أن جميع الويلات والشرور المستشرية في هذه الدنيا مصدرها الأول آدم..**

لكن الإسلام لا يرى هذا، إذ ينص على أن الله غفر لآدم بعد أن تاب ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]..

والإسلام لا يقول أساسا بوراثة «الخطيئة الأصلية»، ولا بأن أول إنسان كان أثيما، بمعنى أن الخطيئة أو الإثم ليس أصل الفطرة التي فطر الإنسان عليها، بل إن الإثم قد يغتفر إذا تاب الإنسان توبة نصوحا، حيث يغفر التواب الرحيم الذنوب..»[٥].

* * *

- ٦ -

رفض المسيحية للفكر اليونانى

* «لقد عدَّ القديس «هيروتيموس» الفكر اليونانى لعنة على البشر، فترجم الإنجيل إلى اللاتينية، بحيث قلبت «الڤولجاتا - Vulgata» - [الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لهيروتيموس] سنة ١٥٤٦م - كلا من هوميروس وفرچيل (٧١-١٩ق. م) رأسًا على عقب». .

*«ولذلك كانت الحرائق المدمرة، وأعمدة الدخان المتصاعدة فوق الإسكندرية، كنز المعرفة اليونانية والهلينية على مدى مئات السنين - **تلك الحرائق التى أشعلتها المسيحية فى هذا التراث اليونانى**.. .

إن السماء تصطبغ باللون الأحمر فوق عاصمة المعرفة على دلتا النيل. هذا فى الوقت الذى تتهاوى فيه درر لا تعوض من الأشعار والفلسفة اليونانية والعلوم الإغريقية **ضحية لعمليات إبادة من تدبير التعصب المسيحى**.

إن إحراق مكتبة الإسكندرية الكبرى والذى يصرون بعناد على تحميل العرب مسئوليته، برغم أنهم فتحوا المدينة، بعد انقضاء أربعة قرون على ذلك الحدث، قد دل هذا الحريق على أنه - بعد دراسة وافية - هو من أعمال الإبادة المسيحية، فضلاً عن أنه دعاية موجهة ضد الإسلام.

وفى عام ٤٧ قبل الميلاد، وفى أثناء مرابطة يوليوس قيصر (١٠١ - ٤٤ق. م) قدمت ٧٠٠ لفافة من كتب مكتبة الإسكندرية طعمًا للنيران. لكنه فى القرن الثالث، وضعت خطط التدمير المنتظمة، فقد قام بطريرك مسيحى بإغلاق المجمع العلمى، وطارد أعضاءه. وفى عهد الإمبراطور البيزنطى «فالتوس» عام ٣٦٦م تم استبدال كنيسة بالمجمع

العلمى، ونهبت مكتبته وبددت، وتعقبوا فلاسفتها تحت غطاء وبتهمة السحر والشعوذة.

وفى عام ٣٩١م استصدر البطريرك «ثيوفيلوس»(٣٨٥-٤١٢م) إذنًا من القيصر ثيودوسيوس يقضى بتدمير أكبر وآخر محج للعالم القديم، وهى أكاديمية الإسكندرية الكبرى (السيرابيون)، وبتقديم ٣٠٠ لفافة، طعمًا للنيران، وبذلك تعرضت البشرية لأفدح خسارة فى تاريخها..

وفى القرن الخامس يعترف آنيوشين - صديق البطريرك سيفيروس، بأنهما كانا عضوين فى مجموعة إرهابية مسيحية فى الإسكندرية، وأنهما قاما بمحاربة العلماء الوثنيين وبمهاجمة دور الثقافة، ودمروا مكتباتهم ومنشآتهم، واختفى بذلك ملاذ آخر من معاقل العلم الهلينى..

وفى عام ٥٢٩م تم إغلاق آخر مدرسة فلسفية فى أثينا. وفى عام ٦٠٠م أحرقت مكتبة بالاتين، التى أنشئت فى روما من قبل أوغوسطوس(٦٣ق.م-١٤م) ومنع تداول المؤلفات الكلاسيكية عامة، والرياضيات بصفة خاصة»[٦].

❊ ❊ ❊

- ٧ -

العقل الإسلامى

*«إن الفكر العربى يحتفل بالواقع الحقيقى، بينما نرى الفكر الهندى يحتفل بالناحية الذاتية كل الاحتفال، خلافًا للفكر اليونانى الذى ينتقل طفرة من الجزئى إلى الكلى، من الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة. فالفكر الإغريقى لم يكن همه الحقائق الملموسة المحسوسة، وإنما وقف بحوثه على مثله العليا، وتحركت دراساته النظرية حرة طليقة من إسار التأثيرات المادية فى مجال الفكر البحت. . أما العرب، فقد سلكوا نهجا وعرا، صعودا من أسفل الدرج فى تسلسل تدريجى يتغلغل دنيا الحقائق العلمية كل منها على حده: المنهج التجريبى القائم على الرصد والملاحظة دون ملل أو كلل، والقياس، والمعادلات والحلول الرياضة، والترقى فى صبر وكبد من الخاص إلى العام. ولئن كان اليونانى فى جوهره من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات) فإن العربى قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفى للكلمة، ومخترع علم الطبيعة التجريبى، ولقد عبد العربى بآلاته حقول العلوم البكر الوعرة تعبيدا، ومهد طرق البحث تمهيدا».

*«ومن الثابت أن العرب توسطوا لأوروبا فى نقل التراث القديم، بعد أن أنقذوا من الضياع ما تبقى من الأعمال التى تعرضت للدمار بمرور القرون وبسبب التعصب المسيحى، فى واحدة من أكبر عمليات التنقيب والإنقاذ المنتظمة فى تاريخ الفكر البشرى. . وفى وقت قصير آتت البذار اليونانية والهندية غلالا فائضة، بعد أن أجدبت الحضارة اليونانية منذ زمن بعيد. .

هل أحدث الرومان أو الفرس الذين كانت المعرفة تحت تصرفهم، ما يمكن مقارنته بهذا؟

إنه التسامح الإسلامى الذى أتاح للعالم الإسلامى أن ينهل من مصادر المعرفة،

حتى الوثنية: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها». . فى حين أن بولس الرسول قذف «الكافرين الباحثين عن الحكمة» وسخر «تير توليان»: «أى توافق يوجد بين الأكاديمية والكنيسة؟ وأى شىء يربط أثينا والقدس؟». . وقد وصف الأب الروحى «أوغسطين» الفضول الملحد بأنه ضرب خطير من المرض. .

لقد كانت العبادة - فى الإسلام - هى التطبيق السلوكى للمعرفة، منذ الوهلة الأولى. . ».

*«وعلى حين يصنف اليونانيون البشرية، فى ضوء رؤيتهم المزدوجة، إلى شيئين مميزين كل التميز:

إما وإلا، هلينيين أو برابرة، أبيض أو أسود، وعلى حين نجد أن الاصطفاء المسيحى الجنونى المزدوج، إما مؤمنون أو غير مؤمنين. . نجد المذاهب المختلفة قد عاشت بين ظهرانى المسلمين، فلم يفكروا يومًا فى أن يشنوا عليها حربًا مقدسة. . فالفكر العربى لا يكاد يوجد فيه أبيض أو أسود، إنه يقر تعددا، ويعترف فيه الواحد للآخر بأحقيته. فهو يوفق بين الأضداد، ولا تتضارب فيه الشهوة والروحانية، والإيمان والبهجة فى الحياة، والدنيوى والأخروى، بل إنها أشد ما تكون ميلاً بعضها إلى بعض (فيما بينها). وهكذا أيضا نفهم النظرية والتطبيق»[٧].

*«وبفضل أسلوب العرب الخاص فى التفكير، وتسامحهم، لم ينظر علماء المسلمين - كما هو الشأن لدى المسيحيين - إلى الإنسان مطلقًا من خلال نظاراتهم الإسلامية. لقد نظروا إلى الفرديات، وهكذا أيضا قامت العلوم المقارنة. فالبيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٨٤م) سجل الرقم القياسى بكتابه «تاريخ الهند»، وإلى جانب التاريخ السياسى والوضع الروحى للأديان الهندية، وضع فى حسبانه الانتصارات الحضارية والعلمية - وفى [آثار الماضى] يستعرض الأنظمة التاريخية للعرب والفرس والسبئيين والآشوريين واليونان واليهود والمسيحيين فى سياق أعيادهم المقدسة، وديَاناتهم، وتاريخهم. . وكذلك صنع ابن حزم (٣٨٤-٤٥٦هـ ٩٩٨-١٠٦٤م) فى مقارنة الأديان. . وابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ ١٣٣٢-١٤٠٦م). . »[٨].

* «إن المرء ليتخذ من مقولة «هيجل» (١٧٧٠-١٨٣١م) الشهيرة قاعدة: «كان يجب أن تنقضى مئات السنين قبل أن يصبح العقل الأوروبى قادرا على مغادرة عشه، وعلى تحريك جناحيه والاستعداد للطيران».

لكن هذه القاعدة لا تنطبق على العالم العربى الإسلامى، الذى زخر، على العكس منهم، بالإنجازات العلمية المهمة فى تاريخه المبكر بالذات. .

إن السيادة الإسلامية فى الشرق خلقت فى وقت قصير حضارة مزدهرة امتد بنيانها زهاء ستة إلى ثمانية قرون، حتى منغوليا فى الشرق الأقصى سنة ١٢٥٨م وفى إسبانيا سنة ١٤٩٢م إلى أن اغتالتها الصفوة الروحية المسيحية، وضحت بمحتويات المكتبات الضخمة».

*** «وإذا احتقر اليونانى الحر العمل البدنى، كاليدوى والزراعى، أو عمل الرقيق فى عقل غير مفيد، باعتبار أن هذا العمل غير كريم (شريف)، واعتبر الاستعمال التطبيقى للمعرفة بمثابة حط من شأن الفكر وتدنيس للمثل العليا لرؤية الأفكار الصادقة، فإن هذا يتعارض تماما مع الواقع التجريبى للعرب. . وهنا تكمن جذور نوع معين من توجيه المعرفة، والتى بسببها أصبح العرب يتمتعون بوزن خاص، علميًا وتاريخيًا، وبتأثير حاسم على أوروبا. . وبفضل هذا الفرق كان العرب أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليونانى، أكثر من سعاة بريد للقديم. . فلم يرتضوا أن يرددوا كالببغاء معارف القدماء، وإنما ابتكروا شيئًا خاصًا وجديدًا».**

«لم يعمل العرب على إنقاذ تراث اليونان من الضياع والنسيان فقط ـ وهو الفضل الوحيد الذى جرت العادة على الاعتراف به لهم حتى الآن ـ ولم يقوموا بمجرد استعراضه، وتنظيمه، وتزويده بالمعارف الخاصة، ومن ثم إيصاله إلى أوروبا، بحيث إن عدداً لا يحصى من الكتب التعليمية العربية حتى القرنين ١٦ و١٧ قدمت للجامعات أفضل مادة دراسية، وقد أصبحوا ـ وهذا أمر قلما يخطر على بال الأوروبيين ـ المؤسسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية، والجبر، والحساب بالمفهوم المعاصر، وعلم المثلثات الكروى، وعلم طبقات الأرض، وعلم الاجتماع، وعلم الكلام.

وإلى جانب الابتكارات والاكتشافات الفردية التى لا حصر لها فى سائر العلوم التجريبية ـ التى إما أنكرها وإما نسبها الكُتّاب الأوروبيون إلى الغير ـ **فقد وضعوا فى يد العالم الأداة المتكاملة الجاهزة، ألا وهى النظام العددى والحسابى، ومناهجهم العلمية الطبيعية فى مجال البحث التجريبى، الذى من العسير تقويم دوره الفعال فى التطور العلمى الأوروبى».**

«إن عـــددا كـــبـــيـــرا من الأعـــمـــال الـيـــونانيـــة والإغـــريقـــيـــة لـ: «أيوكيد» و«جالينوس» «وبطليموس» وغيرهم. . قد تم تجاوز بعضها من قبل العرب الذين أمسكو بزمام التراث اليوناني على مدى مئات السنين، وواصلوا السير فيه وتعدوه»[٩].

*«وبالعرب أيضًا، أصبحت الحقائق المتفرقة موضوعًا لسائر البحوث، وهنا أيضا تولد الصعود التدريجي المتأنى، الذى يركن إليه، من الحالات الفردية إلى العموميات، وذاب النهج الاستقرائى ليشق طريقه لمنهج علمى، فيه تحاصر الحقائق بمشاهدات ومقايسات لا تعرف الكلال، وبعدد لا يحصى، وصبر لا ينفد، وعمل منتظم، من التجارب المتكررة، تحت شروط مختلفة، ثم الحصول على قواعد وقوانين ثابتة، وأعيد النظر فى النظريات، فمنها ما استبدل، ومنها ما اعتمد فى ضوء من حرية الفكر، الذى ظل الشك كالشوكة فى جنبه».

«ولكى نفهم ملمح العلم العربى، ونمطه المتميز بالمقارنة باليونانى، يجب أن ندرك أنه فى حين يتوق اليونانى إلى التجرد من الحس إلى المصادفة، والتغاضى عما هو فردى، كى يصعد نحو المفهوم المجرد، تحتل الخصوصية الفردية مكان الصدارة بالنسبة للعربى. . .».

*«وفى الوقت الذى كـانت فـيـه أوروبا منغلقـة، تجْدف فى وحل المؤسـسـات السلطوية، محرومة تمامًا من الوقوف على قدمين ذاتيتين، تعالت فى العالم العربى دائمـا أبدا أصـوات: «لا أسـتطيع أن أجـارى أرسطوطاليس فى هذه النقطة». . «لقد لاحظت. .». . «أنا نفسى قد رأيت». . «لأننا برغم إجلالنا الكبير لجالينوس، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق».

إن النقـد البناء للطبيب عبـد اللطيف البغـدادى(٥٢٠-٦٢٨هـ ١١٢٦-١٢٣١م)- المتواضع، الذى كان مدرسًا فى سائر العواصم تقريبًا- فجالينوس(١٢٩-١٩٩م) قد درَّس بأن الفك الأسفل يتكون من عظمتين مجتمعتين معًا. ولقد كتب البغدادى: «إلا أننا شاهدنا ألوفًا من العظام والهياكل، وقمنا بفحصها بدقة متناهية، وتحصلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة. وهى معرفة ما كنا لنتحصل عليها من دراسة

الكتب. وكان جالينوس قد علمنا، **بأن الفك الأسفل يتألف من عظمتين يجمع بينهما نسيج ضام. غير أنا عاينا ألفى عظم ولم نجد فيها فكًا واحدًا مؤلفًا من عظمتين. إنه عظم واحد دون أى رفو».**

وصوت آخر من ابن النفيس (٦٨٧هـ ١٢٨٨م): «**إن ما قاله جالينوس خطأ**». فلقد اكتشف ابن النفيس لأول مرة، خطأ جالينوس حول دخول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى (الأذين والبطين) فصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح، وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الإسبانى ميخائيل سيرفت. لقد كتب ابن النفيس: «**لكى نصف مهمة كل عضو على حدة. نستند إلى ملاحظة دقيقة ودراسة صريحة، دون الاكتراث ما إذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا**».

*«لقد قال النظّام (٢٢١هـ ٨٣٦م): **إن أول شرط للمعرفة هو الشك.**

وبهذه الكلمة المدهشة، وفى زمن سادت فيه العقائد السلطوية، وجه إبراهيم النظام علماء العرب نحو الطريق، وبذلك أصبحت التربة ممهدة أمام التجربة العلمية.. أى التعرف على الشىء عن طريق أفضل معرفة، اكتشاف الطبيعة الحقيقية للأشياء، كما هى عليه، وبالمقدار المتاح للإنسان. وهذا برنامج عمل لا يسلّم بشىء قبل أن تؤكده التجربة..

لقد تطلب العلم العربى:

١- التسامح السخى مع كل ما هو غريب، حتى فى القضايا الدينية.. والتسامح مع معرفة الكفار.

٢- استعداد النبى بالوحى، وعبر الهداية الدينية الخاصة والعالمية، لا لقبول المعرفة البشرية العقلانية فقط، بل والحث عليها، حتى إن مداد طالب العلم ارتفع إلى درجة التقديس، وأصبح بمثابة دماء الشهداء وليس كما فعلت الكنيسة: حشر المؤمنين فى حيز عقائدى ضيق، بعيدًا عن المتنفس.

٣- ولوج الحياة الفعلية، والتوجه الدائم نحو الحاجات العملية، التى أدت إلى

التقارب بين النظرية والتطبيق، لا كما كانت عليه الحال مع اليونانيين البعيدين عن الحقيقة، المتنقلين بين الأعمدة الخرساء، أو غير المعقول، كما هو الشأن فى الدارسين المسيحيين المتزمتين من فلاسفة أوروبا فى جدلهم العقيم، الذين كانوا ينظرون إلى العمل نظرة مهينة.

٤ـ الاستعداد للشك والإصرار على عدم الانصياع للعقائد والآراء الجاهزة، والإقبال على سبر غور كتب المعرفة الداكنة بالحواس والفهم، وشرحها بشهادة العينين والأذنين..

لقد قال الطبيب الغرناطى والوزير ابن الكاتب: «**إن القاعدة التى يجب أن ننطلق منها دائما هى أن برهانا اقتُبس من المنقول، عليه أن يخضع للتغيير، حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسنا إلى صدقه**».

ولقد تعرف هذا الطبيب العربى إلى طبيعة الأمراض التى وصفت من قبل اليونانيين بأنها دنس أرضى، ومن أوروبا المسيحية على أنها عقاب ربانى.. فعزى وباء الطاعون إلى العدوى، وقال: «إن وجود العدوى قد ثبت بالتجربة، وبالبحث، وبالفهم، وبالتشريح والأدلة الموثقة، وهذه العوامل تهيئ الدليل غير القابل للنقض.

إن حقيقة العدوى تتأكد للباحث الذى يلاحظ كيف أن الشخص الذى يحتك بمريض يصاب هو أيضًا بالمرض، فى حين أن الشخص الذى لا يحتك لا يصيبه المرض. وكم أن نقل المرض فى بيت أو ربع يتم بواسطة لباس أو إناء، علاوة على ذلك، فإن العدوى قد ثبتت عن طريق وافد من قطر يعانى من الوباء فى مدينة ذات ميناء، وعن طريق حضانة الأشخاص المعزولين».

*«ولقد كتب ثابت بن قرة (٨٣٦هـ ٩٠١م) إلى زميله فى الترجمة إسحاق بن حنين (٢٠٢ـ ٢٩٨هـ ٨١٧ـ ٩١٠م) حول ألواح بطليموس ـ التى ثبت خطؤها ـ: «نحن ـ بطبيعة الحال ـ لسنا بعد فى وضع يمكننا من الإجابة القاطعة عن مثل هذا السؤال. والحسم الموضوعى فيها كان ليتم لو أننا قدرنا على مراقبة الشمس فى الفترة الواقعة بين بطليموس ويومنا هذا. فإذا وجدت إحداها لدى المؤلفين اليونان، فأرجو إفادتى بها، بحيث أتمكن من تكوين حكم أكيد حول ذلك. وأود أن أضيف، بأنه، بعد جلاء

هذه النقطة، فإننى سوف أعالجه هنا. غير أنه ما زال مظلما، ويبدو أنه مجرد تخمين، وعليه لا يمكن قبول هذا الكتاب. **لأنى - من جانبى - لا أريد أن أتبنى ما هو ليس بحكم الأكيد، بل العارى من الشك من كل جانب»**.

*«وثمة خاصية للعقل العربى فى الحساب، كانت فى صالح الثقافة والعلم التطبيقى والتجربة، وهى الحدس تجاه كبير الأعداد، والبهجة فى المسائل الحسابية.. لقد جعلوا الأرقام الهندية الغامضة، بواسطة الصفر، أداة طيعة منظمة، سهلة الاستعمال للتعداد العملى والرياضيات التى عُدت من علوم المستقبل، وبذلك تفوقوا بالخطوة الحاسمة على البابليين واليونان والرومان، وحتى على الهنود الذين اشتهروا بموهبتهم فى الرياضيات، وعلى المسيحيين المثابرين فى الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، فى المدن الآشورية وما بين الرافدين».

«لقد حول العرب موروث اليونان فى العدد والحساب من العلاقات الهندسية.. إلى تجبير وتريض الحساب، ثم أخذه رياضيونا الأوروبيون وظلوا محتفظين به حتى يومنا هذا»[10].

*«لقد كان جابر بن حيان (٢٠٠هـ ٨١٥م) - الصيدلى - هو «هيبوقراط» الكيمياء.. المؤسس لعلوم الكيمياء، والمتحدث باسمها حتى مطلع العصر الحديث. كان باحثًا أصيلاً مستقلاً، خلّف دونه، بطرقه التجريبية المبتكرة، واكتشافه لعناصر ومركبات كيميائية حديثة، نظريات وتجارب الشرق واليونان الكيميائية، وحتى الهلينية ذاتها بمسافات طويلة، أجل، بما أجرى على الحيوانات من تجارب. وقد تصدى بنقد لاذع لمعالجة الأولين للمسائل الكيميائية والفيزيائية، الفلكية والغيبية.

هنا يتضح دور العرب الأصيل الذى تنبع واقعيته وحقيقيته المبصرة من القناعة، وتقرب من الأشياء بمساعدة الوقائع والتفكير، اللذين بنى عليهما علمه. وبذلك أصبح النزاع مع التراث اليونانى أمرًا محتمًا وقوعه..

والعلم لدى جابر ممكن فقط، حتى يتعرف ويستفسر المرء عن سبب وجود الشىء، وبفضل نظرة جابر الجديدة إلى الحقيقة، يتجاوز جابر كيمياء الأولين المتقوقعة، ويطهرها من أجزائها التأملية غير العلمية، حين ينقى من كيمياء البابليين، واليونان،

والمصريين المتأخرين، والفرس اللاهثين خلف المعجزة، العنصر السحرى المجازى. . ويدعو، من خلال تجارب عملية ومنتظمة، إلى تحليل المواد الأولية، وإلى فرزها، وإلى تعريفها. وبدلا من طريقة الصهر البدائية والمستعملة حتى ذلك الحين للحصول على الذهب، كما كانوا يتوهمون، من المعادن، ابتكر محلولا حصل عليه من أحماض الملح وماء الملك ـ [مؤلف من ثلاثة محاليل مركزة لروح الملح + حمض النتريك] ـ كما نجح أيضًا فى الحصول على النشادر المعدنى وعلى مشتقاته، الأمر الذى استبدلته الكيمياء القديمة بشكل جوهرى.

وثمة فرع آخر يعد شيئًا مثيرا للقرن الثامن، يعكس عبقرية جابر، وبه بز العلماء اليونان والهلين أيضًا من خلال تصوره للكيمياء العضوية. إن تحليل الجسم إلى العناصر الأولية التى يتكون منها، احتل جانبا جوهريا من علمه، وهو فى النهاية، مرتبط بتحليل الكائن العضوى: «فقد حضّر من المواد الحيوانية والنباتية أشربة (الكسير) سجل مواصفاتها على أسس حسابية.

وثمة مؤلف من نوع خاص يتحدث عن السموم، قام جابر بتجريب تأثيرها على الحيونات أولاً. .

على أن ولع جابر بالتجربة مضى إلى مدى أبعد، إنها المغناطيسية التى كانت تأسر له، والتى كسب بها قصب السبق. إن المنغاطيس بتأثيره يخترق صفائح النحاس السميكة. أجل، والمغناطيسية تحوله إلى معدن آخر. لقد قاس جابر حمولة المغناطيس تبعا لقدرة الرفع فى وزنها وأثبت أنها تتناقص بمرور الوقت. . كما يستدل على ذلك من أقدم الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عام ٨٥٤م ـ حيث اصطحب البحارة العرب حجر المغناطيس لتحديد وجهة إبحارهم فى الرحلات الطويلة فى حالة حجب الليل لنجوم السماء».

*«ومن بين أبرز تلاميذ جابر بن حيان: الرازى الطبيب (٢٥١ ـ ٣١١هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٥م) **الذى صنع من الكيمياء علمًا للشفاء**، والذى كان إلى عهد قريب فرعًا من فروع الطب، فرفعه إلى مرتبة مستقلة، علم يقوم على مبدإ خاص، فإذا ما اشتغل جالينوس، ومن بعده ديوسكور يدوس (القرن الأول الميلادى) ذات مرة بالمستحضرات

النباتية، فقد قدم الرازى الآن ـ واضعا أستاذه نصب عينيه ـ الكيمياء غير العضوية كعلم تجريبى وعن إدراك سابق فى خدمة الطب. وجعلها طوع الاستعمال للعلاج الطبى بهدى التجارب على الحيوانات. وقد اتضح له أنه من خلال تحسين استبدال المواد الطبيعية صناعيا، يمكن الحصول على أدوية جديدة لا يمكن وجودها فى الطبيعة. وهذه إحدى مكتشفاته الحديثة، بالقياس إلى القديم. وفضلا عن المواد النباتية والحيوانية، كالدم والحليب والبول والسموم، فقد كان السبَّاق إلى استعمال عدد كبير من المعادن، والملح، والبوريك (بوراكس) ـ وهى كلمة من أصل عربى ـ والزاج والمعادن، والأحجار، والزئبق، والكبريت، وسلفات الزرنيخ. فقبل استعمالها، اختبر حسب أفضل منهج ـ منهج عربى منذ أيام جابر ـ المواد المستحضرة بطريقة تركيبية فى التجارب على الحيوان وبالتجريب على القردة، طور مركبات الزئبق كعلاج ـ على سبيل المثال ـ لبعض أمراض الجلد. وفى حوزتنا مواصفات كاملة على مثل هذه الاختبارات.

و فى حقل التجارب على الحيوانات، استكمل صيدلة الحشيش والأفيون لغرض التخدير، الذى أثراه العرب من عدة جوانب، فى حين أنه فى أوروبا العصر الوسيط، سرعان ما كان يرتاب فى أمره على أنه من أعمال الشعوذة ساعة تدريسه فيلاحق ويطرد!..

وكان الرازى أول من حضَّر أحماض الكبريت المهمة، وقد درس بالتفصيل اثنين وثمانين سما متفرقا من عالم الحيوان، والمعادن، وعالم النبات، وعلى سبيل المثال، سموم الفطريات. ويعتبر، بالتعرف إليها ومعالجتها ومداوتها لسموم مضادة ـ يُعَدُّ مكتشفا ومخترعا ـ وما زال المستهلك حتى يومنا هذا، يبتهج فى مودة زائدة بالأدوية سيئة الطعم، قدمها الرازى فى أقراص غلفها بقشرة ظاهرة.

وأخيرا، و من السوائل المتخمرة المقواة، أو المحتوية على السكر، صنع الكحول ـ كلمة ـ عربية ـ ومعناها الناعم.

وقد تم لجابر، والرازى، ومن تلاهما وصف عدد كبير من المركبات الكيمياوية، ومن بينها أكسيد الزئبق، والزنجفرة، والزرنيخ، ونترات الفضة، والشب ـ كلمة عربية أيضًا ـ والزاج الأزرق، والحامض الملحى، ومحلول البوتاسيوم، ومحلول النطرون، ومستحلب الكبريت، ومستحلب الكبد الكبريتى، وأشياء أخرى.

وقد تحصلوا على الكحول النقى الذى استعمل فى الجراحة، وميزوا بين الأحماض والقلويات، وراقبوا زيادة وزن المعادن بالتأكسد والتكبرت، كما عرفوا قبل غيرهم أن النار تنطفئ بمنع الهواء، وطوروا العمليات الكيمياوية الأساسية، كالتبخير، والتصعيد، ومزج المعادن بالزئبق، والتبلر، والتكلس، والتصفية، والتقطير، بحيث فرقوا بين التقطير المباشر بواسطة الحمام الرملى أو المائى.

ولأجل هذا الغرض، وضع صانعو الزجاج السوريون والمصريون، تحت تصرفهم، إنتاجهم الرفيع فى فن تكوير الزجاج بواسطة النفخ، والذى صاغوا من مصهوره اللزج الأشكال التى يريدون. ومن هنا وضعت صناعة الزجاج قدمها بواسطة المصنعين العرب فى مورانو بإيطاليا، وغزت بجمالها غير المعهود أوروبا منذ القرن ١٣، ونخص بالذكر الحلبى منه، الذى كانت سلعه الزجاجية تمثل إحدى أكثر السلع المصدرة إقبالا، وصدرت إلى المختبرات العربية القوارير الزجاجية، وأنابيب الاختبار مع الأنبيق والعُدُل، الذى اخترعه العرب للتقطير، والذى ما زال يحمل الاسم العربى حتى الآن.

وإضافة إلى الفرن الآلى المستعمل من قبل الكيمياويين، صمم الطبيب الأندلسى أبو القاسم الزهراوى (٣٢٤-٤٠٣هـ ٩٣٦-١٠١٣م) فرنًا خاصًا للتقطير بشكل آلى، ومن أجل إثبات الوزن النوعى لمادة قيد الاختبار وتثبيتها، ابتكر ميزانا حساسا بخمس صحاف، إحداها تطفو فوق سطح الماء»[١١].

*** «ولقد كانت براعة العرب فى التجربة وإبداعهم للمنهج التجريبى، سبيلهم إلى نقد الموروث العلمى القديم..»**

فعلى بن عباس - طبيب عضد الدولة (٣٣٧-٣٧١هـ ٩٤٩-٩٨٢م) يقول: «لم أجد بين مخطوطات الأطباء الأقدمين والمحدثين كتابًا كاملاً، يحتوى على كل ما هو ضرورى من أجل تعليم فن الطبابة. هيبوقراط كتب باختصار شديد، وكثير من تعابيره ضبابية وتحتاج إلى شرح. وجالينوس ألّف عدة كتب لا يحتوى كل منها إلا على جزء يسير من فن الطبابة، غير أن كتبه مفرطة الطول، كثيرة الإعادة والتكرار، ولم أجد له كتابا واحد متكاملا ومناسبا لتعليم المتدربين..

أما ما يتعلق بى، فإنى سوف أعالج فى كتابى كل ما هو ضرورى للحفاظ على

الصحة وعلاج المرضى . . الأمور التى يجب أن يعيها كل طبيب مقتدر ذى ضمير حى . . » .

وفى الأندلس ألف الجراح أبو القاسم الزهراوى (٣٢٤-٤٠٣هـ ٩٣٦-١٠١٣م) كتابا جامعا فى الطب يقوم على التجارب الشخصية، وضع فصله الثالث حجر الأساس للجراحة الأوروبية، ورفع الطب الجراحى - الذى احتقرته المسيحية - كفرع طبى مستقل، يستند إلى التشريح العربى، إلى مصاف الاختصاصات الأخرى سواء بسواء» .

* «وفى الأندلس، ألف الجراح بن زخر (٤٨٤-٥٥٧هـ ١٠٩١-١١٦٢م) كتابه الرئيس «المدواة بالحمية والتنفيس» مرشدا للطب، غرضه الأساسى تثقيف المبتدئين من الجراحين من خلال قصص المرضى والأطباء المبرزين» .

* «ومخطوط الرازى «حول الحصبة والجدرى» قد ظل يطبع فى أوروبا حتى القرن ١٩» .

*** «إن العرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على أعمال الأقدمين، التى كان يكتنفها الغموض فى وضعها المتفكك .**

وهذه شهادة باعتراف جماعى ممن أرّخ للطب . ولقد أعطتهم أوروبا - وهو أمر تندر معرفته اليوم - الأفضلية كأساتذة، وأخذت عنهم معارفها الطبية، أكثر مما أخذت من مصادر اليونان المشوشة المحدودة» .

* «يقول الطبيب العربى ابن الخطيب (٧١٣-٧٧٥هـ ١٣١٣-١٣٧٤م) : **«إن القاعدة التى يجب أن تستند إليها دائمًا، هى أن برهانا تاما، أخذ بطريق النقل، ينبغى أن يخضع للتعديل إذا ما اتخذ موقفا مناقضا مما يشير إليه إدراكنا الحسى» . «ويقول ابن البيطار (٦٤٦هـ ١٢٤٨م) : «كل ما كتبته هنا نابع من تجربتى الشخصية . أو من تقارير أمثال هؤلاء المخالفين، الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا ما وجدوه ثابتا من خلال التجربة الخاصة»[١٢] .**

*** «ومما لا سبيل إلى تجاهله، عدد الفلكيين العرب الذين لم ينساقوا خلف الاعتقاد السائد الأعمى، الذى قابلت به أوروبا فى القرون الوسطى، أمير الفلك الهلينى**

بطليموس، بل أعادوا النظر فى النتائج التى توصل إليها من خلال المشاهدات الجديدة والحسابات والنظريات المستحدثة فحسنوها، وصححوا الأخطاء، وتجاوزوها فى بعض المسائل. .

لقد وضع الفلكيون اليونان بين أيدى العرب بعض أجهزة القياس، غير أنها سرعان ما عجزت عن تلبية المتطلبات المطروحة للقياسات التى يحتاج إليها العرب لأغراض العبادة اليومية. ولكونهم تقنيين غزيرى الخواطر، وميكانيكيين مهرة، فهم يسعون دائما إلى التحسين، ويجرون تعديلات، ويفكرون فى الجديد، ويطورون فى أساليب مشاهداتهم وأدوات القياس المختلفة لديهم نحو الكمال، **بينما يأخذها الغرب عنهم، ويستعملها على صورتها دون إدخال تعديلات عليها حتى عصر ابتكار التلسكوب.**
وفى هذه الأثناء تحولت المراصد الفلكية إلى منشأة لا غنى عنها، تم بناؤها من قبل الأمراء الهواة وطلاب العلم، وغالبا ما ارتبطت بأكاديمياتهم، ومن أشهر هذه المراصد، المرصد الذى بناه المأمون (١٩٨-٢١٨هـ ٨١٣-٨٣٣م) فى بغداد - وفى سامراء. . وفى دمشق. . ومرصد العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ ٩٧٥-٩٩٦م) والحاكم (٣٨٦-٤١١هـ ٩٩٦-١٠٢٠م) فى القاهرة. . ومرصد عضد الدولة (٣٣٧-٣٧١هـ ٩٤٥-٩٨٢م) فى بغداد. . ومرصد ملك شاه (٤٦٥-٤٨٩هـ ١٠٧٣-١٠٩٢م) فى نيسابور. . ومرصد أولوغ بيع فى سمرقند».

***«لقد كان البيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ ٩٧٣-١٠٨٤م) أحد أهم علماء العرب فى عصرهم. . ولقد ذهب فى ابتلائه - [اختباره] - الناقد لعقيدة الهلينيين الفلكية مذهبا بعيدا، بحيث رفض صورة العالم البطليموسية - الشاملة للشمس الدائرة حول الأرض. . وفى رأيه أن الشمس ليست هى المسئولة عن تناوب الليل والنهار، بل الأرض ذاتها التى تدور حول محورها مرة فى اليوم، ومرة تنتقل فيها حول الشمس فى عام. فظل البيرونى يقف وحيدا أمام المعتقد السائد حول فكرة «الزحزحة المقدسة».**

* «واكتشاف البقع الشمسية على يد ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ ١١٢٦-١١٩٨م) الذى أقدم هو وزميله البطروجى (٥٨٠هـ ١١٨٤م) على رج العقيدة البطليموسية، وعلى تقديم تفسيرات أخرى لمنحنيات الكواكب.

ومارس ابن باجة الأندلسى (٥٣٣هـ ١١٣٨م) تأثيرات أشد بالنسبة إليه، فإن القوة

لديه واحدة، وهى ذاتها، سواء منها ما يحرك الكواكب أو التى تجعل تفاحة تسقط من شجرة، وهو الرأى الذى يجابه الازدواجية اليونانية، والذى يؤثر ـ بصفته فيزيائيًا ـ على جاليلى (١٥٦٤ـ ١٦٤٢م) عن طريق العلاقة التى يفترض وجودها بين القوة ـ السرعة ـ والمقاومة فى الأجسام المتحركة».

* «لقد أجرى الفلكى الكبير السَّرْقَلى (٤٢٠ـ ٤٨٠هـ ١٠٢٩ـ ١٠٨٧م) ـ فى طليطلة ـ ما لا يقل عن ٤٠٢ مشاهدة فكان أول من برهن على أن تغيير بعد الأرض والشمس التى اعتبرها اليونانيون ثابتة، ملائمة (لتقدم نقاط تعادل الليل والنهار). وقد قام جيرهارد ـ كريمونا، بترجمة مؤلَّف السرقلى هذا إلى اللاتينية، وعرف باسم المؤلف Amzache . وفى عام ١٥٣٠م استشهد كوبرنيكوس (١٤٧٣ـ ١٥٤٣م) فى كتابه الذى نُشر بالفرنسية تحت اسم De Revolution بهذا الكتاب، وبكتاب التبانى [٢٤٤ـ ٣١٧هـ ٨٨٥ـ ١٩٢٩م]. .

*«ولقد تحدث الطبيب الطبرى (كان حيًا قبل ٣٦٦هـ ٩٧٦م) عن كرة نحاسية ضخمة أثارت إعجابه فى عام ٨٥٠م: «أمام مرصد فى سامراء شاهدت جهازًا أشرف على بنائه عالما الفلك والميكانيكيان الأخوان محمد وأحمد بن موسى، وهو يشبه شكل الكرة، ويصور النجوم ورسم البروج، ويعمل بالطاقة المائية، فإذا أفل فى السماء الفعلية نجم، اختفت صورته فى نفس اللحظة من الجهاز فى الوقت الذى يغيب تحت خط الدائرة التى تمثل مجال الرؤية. فإذا طلعت فى الطبيعة صورة نفس الكوكب، أشرقت صورته أيضًا على الجهاز فوق خط الأفق»[١٣].

*«على أن العامل المساعد الضرورى للبحث والتجربة لدى العرب، هو الرياضيات، لقد رأينا كيف أرسى الخوارزمى الأصول الطبيعية للرياضيات التى تمكن من جميع العمليات الحسابية، لكنه لا يكتفى بمساهمته تلك فقط، إنه يضع بين يدى زملائه الباحثين [جهازًا يدويًا لا غنى عنه: الجبر أو علم المعادلات]: الذى يُسمح بموجب هذا العلم استخراج العدد الصحيح، لعدد واحد أو أكثر من المجاهيل. وقد ألّف كتابه فى ٨٢٠م، وهو كتابه الثانى الذى دخل به التاريخ.

وهذا المؤلف البالغ الأهمية، الذى أدخل فيه الجبر ضمن نظام للمرة الأولى، حظى

بتقدير كبير فى العالم العربى، و أعارته أوروبا أهمية غير عادية . . ولقد تتلمذ ليوناردو ـ بيزا (أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣)، رياضى القرون الوسطى الكبير، على يدى الخوارزمى . .

ومن كتاب الجبر لأبى كامل(١٣٢هـ ٧٥٠م) ـ الذى عاش فى مصر ـ ومخطوطات البيرونى وابن سينا(٣٧١ـ٤٢٨هـ ٩٨٠ـ١٠٣٧م) والقرشى نهل ليوناردو معارفه حول المعادلات من الدرجة العالية، وبلغ الجبر ذروته على يد عمر الخيام(٥١٧هـ ١١٢٣م) الذى اعتبر حجة فى نظر الرياضيات القروسطية . .

ولقد أصبح العرب، أيضًا، المؤسسين للرياضيات الكروية، وهى حقل للعلوم لم يكن له وجود عند اليونان . . ووضع العرب الجيب، ونظريات المماس، والصيغ الأساسية لعلم المثلثات، وبذلك يكونون قد أحيوا حقلاً غير معروف حتى ذلك الوقت، ما لبث أن احتل منزلة مرموقة فى مجال الفلك والملاحة البحرية والمسح الأرضى».

*«إن بطليموس لم يعرف سوى وجهين من أوجه الاستعمال الفلكى، وهذه النقطة تلقى الضوء على الفروقات فى الأوجه وحول طبيعة العلوم العربية، وهكذا يعرض الخوارزمى الأربع والثلاثين مسألة، ثم لا يلبث خلفه أن يتم العدد حتى الألف».

***«وعلى حين كان علم الحساب عند اليونان يعنى التسلية بالتصرف فى الأعداد، والترف الفكرى المحض للمولعين بالتأمل . . مضى الفلكى والحسابى الرقاش بعلم الحساب نحو مرتبة أعلى على سلم الكمال**. ففى كتابه «المفتاح إلى علم الحساب» قدم لنظام المراتب العددية آخر شكل من الكمال، وذلك حين استبدل ـ كأول شخص (عالم) ـ الكسور بالخط المرصوف، وعلم الحساب بالكسور العشرية، وهو إنجاز ما كان لبائعة البيض أو بائع الحليب التوصل إلى نتيجته من دونه فى عالمنا اليوم، ولا كان حساب اللوغارتمات ممكنًا بدونه كذلك»(١٤).

*«يقول ابن الهيثم: «**وليس شعاعًا يغادر العين هو الذى يسبب الرؤية. وعلى الأغلب، فإن شكل الجسم الملموس يشع فى العين، ويستبدل بجسمه الشفاف**».

ويصف وصفًا دقيقًا عدسة العين، والملتحمة، والإفرازات، وأعصاب الرؤية التى ترسل انطلاقًا من الأجسام انطباعات الحواس.

هل تنشأ هنا صورة مصغرة بسيطة طبق الأصل؟ إن ابن الهيثم لا يحسم المشكلة بهذه السهولة، **فاستنادا إلى التجارب المختزنة، يتوصل الدماغ إلى الانطباعات الحسية الملتقطة - فى الحالة الراهنة - إلى استنتاجات عن بعد وإلى شكل الجسم المدرك.**

ترى، ما الذى جعله يتوصل إلى هذه النظرية الصاعقة حول الرؤية، وطبيعة الأشياء وإنجازات الحواس؟ فكونه فلكيًا، واعتماداً منه على مشاهداته، اكتشف أن سائر الأجرام السماوية ترسل ضوءاً ذاتيًا، بينما القمر وحده يستقبل نوره من الشمس. ولقد اقتبس من ذلك تصورًا جديداً عن طبيعة الإشعاعات الضوئية: من كل موضع فى الجسم المقابل تجرى مستقيمة فى كل الاتجاهات. وقد برهن على ذلك الشىء فى كل تجاربه بدقة حسابية.

وفى تجاربه التى أجراها.. قاس كل مجالات المبصرات الهندسية وأحيا إحدى حقول الدراسة.. وفى ذات الوقت، **وبينما كان الناس فى ألمانيا يبذلون جهدهم، عند الخسوف لطرد الغول الذى ابتلع القمر، عن طريق العويل والصخب، فى ذلك الوقت، كان الناس على النيل يتساءلون: كيف تحدث ظاهرة الخسوف، طالما أن القمر ذاته لا يضىء، بل يستقبل ضوءه من الشمس التى تكبره، ويظهر مع ذلك ظلا، محجوبا، جزئيا أو كلية؟ وعلى الفور كوّن مصادر استيحائه، ودرس فى ضوء أشد اختلافات التجربة تباينا كل شىء يمكن أن يكون مفيدا فى كتابه «حول طبيعة التظليل» - كما أحب أن يسمى كتابه - وقد سجل سبقًا كذلك، حين جرب بآلة تصوير ذات ثقب واحد، وهو نموذج لأقدم آلة تصوير دلته على انتشار الأشعة الضوئية المستقيم - وقلما كان يطمئن إلى نظره - وقدمت له العالم مقلوبا من خلال انعكاس الصور. وفى هذا الصدد استخدم نفس الترتيب الذى لا بد وإن كان بالمصادفة، استعمله ليوناردو داڤنشى فيما بعد. وقد عثر على تعليل لانكسار الضوء الذى يحدث عن طريق الوسائط كالهواء والماء والزجاج، وحسب من بعدها ارتفاع الغلاف الجوى الأرضى بما مقداره ١٥كم تمامًا، وهو أمر يدعو إلى الدهشة، وأعمل الفكر فى نشوء هالة القمر، والغسق، وقوس قزح، والتى فشل أرسطوطاليس فى إعطاء تفسير فيزيائى لها من ذى قبل، وسلط معرفته كذلك على الأجهزة البصرية.**

لقد بز الكندى (١٨٥ـ ٢٦٠هـ ٧٩٦ـ٨٧٣م) فى القرن ٩ معرفة اليونان بتجاربه على المرآة الحارقة. أما ابن الهيثم، فقد درس الانعكاس وحسبه فى المرآة الحارقة (كرة ومقطع مخروطى) وعثر على قوانين تأثير الكشاف. ولقد فحص تأثير الاحتراق والتضخيم «بواسطة المرآة المجوفة فقط، بل وبواسطة العدسة المجمعة المكبرة أيضا. **وابتكر كذلك أول نظارة للمطالعة**. وقد برهن على تفوقه الهائل كمنظّر ومجرب فى التجارب التى أجراها على سير الأشعة داخل كرة. وهى تجارب ما لبث أن واصل تنفيذها بعقله نظيرٌ له ـ كمال الدين ـ من بعده بثلاثمائة سنة.

إن تأثير هؤلاء العمالقة العرب على الغرب تأثير هائل. لقد طغت نظرياته الفيزيائية ـ البصرية، على العلوم الأوروبية حتى العصر الحديث. وعلى العلوم البصرية لابن الهيثم قامت كل بصريات الإنجليزى روجر بيكون (١٢١١ـ١٢٩٤م) حتى بولونيا (فيتلو) والإيطالى ليونارد دافنشى (١٤٥٢ـ١٥١٩م) وحتى يومنا هذا، ما زالت المسألة الفيزيائية الحسابية المعقدة التى حلها ابن الهيثم بمعادلته من الدرجة الرابعة، والتى تفشى مقدرته الكبرى فى الجبر، على النحو الآتى تقريبًا: حساب نقطة فى مرآة لها شكل قبة يُعْكَس عليها جسم من مسافة محددة فى صورة معينة، ما زالت تلك المسألة، تسمى باسمه (مسألة الحازم)..».

***«إن مؤلف ابن سينا فى المعادن ـ وهو الذى ذاع صيته كطبيب ورياضى وفيلسوف ـ كان مصدرًا رئيسيا للچيولوچيا الأوروبية حتى القرن ١٨».**

*«والشعب العربى الذى أحب التجوال، قد أنجب قبل ماركو بولو (١٢٥٤ـ ١٣٢٣م) عددًا لا يحصى من الجغرافيين، منهم الإدريسى (٤٩٣ـ ٥٦١هـ ١١٠٠ـ ١١٦٦م) ـ من سبتة ـ الذى وصل إلى سواحل انجلترا الغربية والبحر الأسود فى القرن ١٢ وصنف فى بالرمو فيضا من الملاحظات ومخططات الخرائط والمقايسات الحسابية فى مؤلف جامع يقع فى سبعين خريطة، استغرق إعدادها خمس عشرة سنة. كان يشدها ككرة على الأرض ويجرى تقييما لها، **وفى عام ١١٥٤م قدم لملك النورمان فى صقلية خريطة للأرض نافرة أصبحت من بعدُ شهيرة، صنعها من الفضة، حدث ذلك فيما كانت خرائط العالم فى أديرة أوروبا توضع بحسب الإنجيل، يطوق فيها البحر اليابسة، وتقع الجنة فى منتصفها.**

والمسعودى(٣٢٤هـ ٩٣٦م) ـ من بغداد ـ الذى حملته مسائل علمية جادة على القيام برحلته الاستكشافية، والذى كتب استنادا إلى مشاهدات خاصة فى بلدان الصين وسيلان وحتى إسپانيا، موسوعة فى ثلاثين مجلدا، أرفقها بوصف للأرض، وبوصف مصور ضخم لعادات الشعوب.

وابن بطوطة(٧٠٣ـ ٧٨٠هـ ١٣٠٤ـ ١٣٧٨م)، الذى استمرت رحلته مدة أربعًا وعشرين سنة، استكشف فيها شمالى ووسط إفريقيا حتى النيجر، وآسيا الصغرى، والصين وروسيا، وإسپانيا..»[١٥].

* * *

***«لقد أصبحت المصادر الإغريقية ـ العربية هى ألف باء العلم، وارتفع الاسم العربى فى ذلك الوقت إلى درجة أنه لكى يفسح الأطباء والكيميائيون والصيادلة والفلاسفة الطريق أمام تناجهم الفكرى فى الأوساط التخصصية، كانوا يطبعونه بالاسم العربى ـ اللاتينى لابن سينا وماسويه الابن أو جابر، بحيث تعمل على شد اهتمام المتعلمين. ولقد ظلت الكتب المدرسية، ككتاب القانون لابن سينا من المواد المدرسية الراسخة فى الجامعات الأوروبية حتى النصف الثانى من القرن ١٧».**

*«ومن يدرى ما إذا كان كولومبس(١٤٥١ ـ ١٥٠٦م) قد اعتمد فى مغامرته على الخريطة العربية الأفضل فى نظره؟».

***«إن العرب سبق واستعملوا البوصلة بالسفينة فى القرن التاسع..** وأقدم وثيقة فى هذا الصدد ترجع إلى سنة ٨٥٤م.

«إذا أصبح الليل حالك السواد، بحيث لم يعد يُستدل بالنجم على الاتجاه، غُرست إبرة فى قشة أو نبات الحلفاء، ووضعت فوق طشت فيه ماء، وحُركت بواسطة حجر مغناطيسى نحو اليمين، بحيث إنها تتجه ـ لدى إقصائها المفاجئ ـ إلى وضع يظهر الشمال والجنوب. وقد جرت العادة فى المحيط الهندى على أن يستبدل بالأبرة والقشة قطعة من الصفيح لها شكل السمكة، تظهر بالرأس والذنب إثر توجيه وهمى مفاجئ باتجاه السماء».

*«وفى الكتب العربية اشتم وجود أسلحة متفجرة، البيوض المتحركة المحترقة «التى تخرج نارا لها دمدمة مثل الرعود».

ولقد استخدمها العرب فى دمياط ضد جيش الملك القديس لودفيج ١٢٤٩م . . وكان الملك يصيح كلما انطلقت قذيفة : « عزيزى المسيح ، احمنى أنا وقومى ! » . . وفى سنوات ١٣٢٥م و١٣٣١م و١٣٤٢م استعمل العرب مدافع البارود فى إسپانيا ، وتمكنوا من تفريق جيوش الشمال الإسپانى المدعمة من قبل الفرنسيين والإنجليز » .

※ « ولقد كانت المعاهد العربية مراكز تعليمية ، ومؤسسات مغلقة ، مقسمة إلى أربع كليات ، وعلى رأس كل واحدة منها عميد . ولكل كلية عدد متماثل من الطلبة ، هنا ٧٢ وهناك ٨٢ ، ومن المنح الدراسية ، لأن حصص الدراسة بلا مقابل مادى ، وكان المدرسون يتقاضون مكافآت من الخلفاء أو الموقوفين . هذا فى الوقت الذى كان يتقاضى فيه كل طالب ديناراً واحداً فى الشهر بالإضافة إلى القرطاسية اللازمة .

وكان الطلاب الوافدون من جميع الجهات ، والمنتمون على الغالب إلى ديانات مختلفة ، يكونون أربع فئات قومية فى مساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر .

وفى مدارس الأندلس ، سُمح أيضًا للفرنجة بالدراسة ، وصُمِّمت الأبنية المشيدة على شكل مربعات للإقامة الداخلية ، والخدمات ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت تحتوى على عدة قاعات للمحاضرات ، وصالات للعمل ، ومكتبة كبرى ، وبها تلحق هنا وهناك معاهد خاصة . ويمنحُ العميدُ المرشحَ بعد إجراء امتحان له ، إجازة فى التعليم ، وبذلك يتحصلون على « البكالوريا » ـ كلمة عربية أدخلت إلى اللاتينية ـ على ذمة الراوى ـ بتخويل من السلطة بتعليم شخص آخر . .

وإن طلبة أكاديمية الفنون الغربية هذه ، لم تكن سوى نسخة عن العربية الأصل » .

※ « لقد أرسل فريدريك الأول بارباروسا (١٦٥٧ ـ ١٧١٣م) جرهارد فون كريمونا إلى طليطلة ، وجلب المحاربون الصليبيون والحجاج الخبرات والمعارف العلمية ، والتحف التذكارية المفيدة ، والأجهزة ، واستوردت عبر جبال الألب المنتجات الوفيرة لعقول المبتكرين التقنويين العرب ، وكذلك الساعات وأجهزة القياسات من جميع الأنواع ، والرافعات ومولدات الطاقة ، والعدسات والعدسات المكبرة ، وغيرها من البصريات ، فضلا عن المناظر الفلكية والمعدات الطبية والمعدات المساعدة للكيمياء التطبيقية . هنا هبت فى لفحات قوية مواد وفيرة للبحث لا يمكن تجاهلها ، وقدمت محصلات ووسائل **بصورة واضحة دفعا مؤقتا أحيانا ، وأثرت تأثيرا تدريجيًا فى أحيان**

أخرى، فاقبل الأوروبيون بجمال على المادة العلمية الجديدة، وأصبح لزاما عليهم أن لا تملى عليهم الأمور من فوق إملاء. لقد صادف البذار العقلية القادمة من العالم الآخر -[العربى]- استعداداً داخليا، وهنا وهناك فقط وجدت التربة المواتية المناسبة للطلوع».

*«لقد هاجرت أقواس المساجد الإسلامية، إلى الكنائس القوطية فى شارتر وريم وكولون وسالز بورى».

*«ومن أكبر إنجازات العرب فى حقل الكيمياء شهادات عدد لا يحصى من المصطلحات المستعملة حتى وقتنا الحاضر، انتقلت إلى لغات أهل الأرض من المفردات العربية، وعلى رأسها تأتى كلمة كيمياء، والأمبيق، والكحول، والبنزين، والبوراكس، ودروجرى، والكسير، وقاليوم، ونطرون، وصودا، وتالكوم، وشيلاق، إلخ..

وبفضل مناهجهم العلمية، طوروا - استنادا إلى رأى المؤرخ الإنجليزى «كاستوم - Custom» الكيمياء حتى هذا المستوى، بحيث إن اكتشافات الكيمياء العضوية كانت مضطرة لأن تعيدها إلى المستوى الذى رفعها إليه العرب..».

*«لقد أثرت العلوم التجريبية العربية تأثيرا أشد من مجرد نوع من شرارة انطلاق لخطة جاهزة للعقل الأوروبى.

.. لقد أمدت الاستعداد الموجود فى الغرب بالمادة المشتعلة المفجرة، وأيقظت الاستعدادات العقلية التى كانت تغط فى سبات عميق، وأطلقت العنان للقوى التى كانت لا تزال متخلفة، ووضعت التطور العلمى العملى لأوروبا فى المسار الصحيح..»(١٦).

* * *

-٨-

انتصار الفكر الأوروبى على النظرة اليونانية والمسيحية للطبيعة

*«وبعد قرون من التقلب فى ازدراء الطبيعة، والتمرغ فى وهده الإحساس بالذنب، بدأت إرهاصات الإعجاب، وتفتحت الأزاهير فى الشعر أولاً، مؤذنة بتنفس الصعداء، بالإعجاب من معجزات الخالق، وفى التفتح الصادق من الروضة الإلهية الندية، ولعل أجملها ما نجده لدى فريدريك زونبرج وفرانسيسكو فون آزيزى وغيرهما كثيرون. . كما أن أسلوب الكتابة لدى الفلاسفة، الذين اقتبسوا عن إريوجينا مبدأه، أخذت هى الأخرى فى التفتح والفوحان. وتحول أريوجينا إلى قدوة، وطرقت مؤلفاته آذان أوروبا كلها. .».

*«لقد أطلق «أدلهرد ڤون باث» [١٠٩٠-١١٦٠م] زفرات من أعماقه بعد رحلته فى العالم الإسلامى، وعودته إلى وطنه - بريستول - فكتب فى رسالته [أسئلة إلى الطبيعة] مقارنًا بين موقفين من الطبيعة:

«إننا إن تهاونا وقصرنا فى تفهم أسرار هذا الكون الرائعة، وجماله وجلاله البديع الحكيم، ونحن نعيش فيه، فإننا نستحق كل الاستحقاق أن نطرد منه طردًا؛ لأننا نكون أشبه بالضيف الجاهل حرمة البيت وكرامته الذى أحله إياه المضيف.

لقد أتيح لى أن أتعلم شيئًا من الأساتذة العرب الحكماء عن الانقياد للعقل، أما أنت فإنك تتبع صورة فرضتها عليك هيمنة مستبدة، كأنك مقيد إلى رسن، مأخوذ بمقودك. . ألا فلتعلمن أن الماشية التى يؤخذ بأزمتها إلى أية وجهة، إنما لا تستطيع أن تميز أو تستبين إلى أين ولماذا تُقاد، ولا تملك إلا أن تتبع الزمام الذى يوثقها، كذلك فإن «سلطة المؤلفات» تقود عددًا ليس باليسير منكم، فأنتم أسراها المكبلون، منقادين لها كالدواب بسرعة تصديقكم الحيوانية».

*«ولقد عمل «نيقولاس ڤون كويس» [١٤٠١- م] على رفض وتقويض كامل الصورة اليونانية والإنجيلية للطبيعة والعالم، تلك التى كانت سائدة ومقبولة من غير نقاش، والتى أعارها الناس آذانهم منذ ألفى سنة. لقد أزاح القذارة عن العالم، **الذى كان يُنظر إليه على أنه شرير، وضيع، ملوث، مدعاة للازدراء والشك**، وحتى الموت والفناء لم يعودا مؤشرين على النقص، ولم تعد الأرض أحط وأسفل نقطة فى التداعى الدنيوى العاتى. لقد أزاح «نيقولاس ڤون كويس» هذا الركام عن العالم الذى جزأه اليونانيون والإنجيل إلى شذرات، وتلقاه إنسان الغرب فى تلك الصورة عن طريقة التعليم الكنائسى».

***«وبالنسبة ليوناردو دافنشى [١٤٥٢-١٥١٩م]. فمن أى معين يا ترى نهل هذا المفكر ثاقب النظر المتعدد المواهب، ليشكل حدثا عالميا؟..**

إن الطبيعة، لديه، انبساط للربوبية التى تتسع لكل شىء، وهى فى كل شىء أيضًا. إن الله هو طبيعة سائر الأشياء، وبفضل الحضور الإلهى هذا، فقد أضحى ذلك ممكنًا للإنسان أيضًا، ألا وهو التعرف على الطبيعة الإلهية الحية...

وفى البصريات، كما فى الرياضيات استند ليوناردو دافنشى على المؤلفات العربية الشهيرة لابن الهيثم الموجودة فى فلورنسا، وعلى نظريته فى الانعكاس الضوئى، وتجاربه على عدسة العين والعدسات المكبرة، وبالكاميرا ذات الثقب..

وفى علم طبقات الأرض، كان العالم ابن سينا قد سبقه إلى اكتشاف تشكل التربة، ولم يتوقف عند التجربة وحدها، بل اعتبرها أساسًا لكل معرفة: «**يجب أن ننطلق من التجربة لكى نتقصى القانون**».

ورفض - كذلك - القول بتفاهة العالم وعزلة الخلق الأبدية».

*«ولقد كان كلٌّ من جاليلى [١٥٦٤-١٦٤٢م] وبلانك [١٨٥٨-١٩٤٧م] على دراية بأن الكون يتجاوز، وبلا حدود قوة إدراك نظرتنا إليه وفهمنا له.

وتحديًا للعون الرائع الذى قدمه المنظار الفلكى، فقد درّس جاليلى الإحاطة الذاتية بالعلم، بحيث ارتضى بتقييد الباحثين بالجانب الرياضى للحقيقة، وبالاستغناء عن كل تحديد للجوهر.

إن المتعرَّف عليه هو حقيقة، يقوم على المطلق الذى لا سبيل إلى إدراكه أبدا . والعلم الطبيعى هذا على دراية بحدوده، وبالاعتراف بحدود التعرف البشرى هذا . وتعود فكرة (الجهل الدارى) للفيلسوفين «إريوجينا» و«كوسانر» ، على غرار جذب حدود معرفة العقل للفيلسوفين «كانت» [١٧٤٢ـ ١٨٠٤م] و«جوته» [١٧٤٩ـ ١٨٣٢م] . وبالمعرفة حول محدودية الحقيقة، يطوق العقل للأوروبى وفى كل الأزمان اليقين، لكى يتعرف معًا إلى الوجود الحقيقى للشىء الذى ما من سبيل إلى معرفته، إلى اكتشافه، فيه، المتضمَّن فى كل ما يتسنى معرفته . . » .

«إن استكشاف الطبيعة لم يعد بالنسبة للإنسان الأوروبى الموجّه توحيدا وكلية (شموليًا) منذ زمن بعيد عقبة، سبيلاً للانصراف عن الله، ولا للانحراف، وإنما وعلى الدوام طريقًا نحو ما هو مجهول، نحو الربوبية . .

ومن المعروف، بما يتفق تمامًا مع توجهات بلانك وأينشتاتن [١٨٧٩ـ ١٩٥٥م] قبيل وفاته بوقت قصير :

«إنه الإحساس الأعمق والأروع، الذى نحن عليه قادرون، منه وحده ينبت العلم الصحيح . ومن كان هذا الإحساس غريبًا عنه، هو الذى لا يستطيع بعد أن يعجب، وأن يفرط فى خشية، فهو الذى يُعد ميتًا روحيًا . لذا فالمعرفة أن يوجد بحق ما هو غير مكتشف، وأن يتجلى بصفته أسمى حقيقة وأسطع جمالاً، الشيئين اللذين لا يتسنى لنا منهما سوى علم ضبابى ـ وهذه المعرفة وهذا العلم، هما جوهر التدين الحق» .

*«إن الطبيعة، لدى جاليلى، ليست قابلة للتجربة، للتعرف للحساب فقط، بل هى أيضًا قابلة للاستعمال، وللتسيير وللإفادة .

إن كتاب الطبيعة، الذى هو فى ذات الوقت كلمة الله، ذو تعبير وانبساط للألوهية، مكتوب بحروف رياضية، وفى سائر ظواهره تتجلى الربوبية بأوضح صورها وأشدها إدراكًا، وبالنظام الرياضى السائد، الذى يرى الباحث الطبيعى نفسه ملزما بقراءته» .

*«ولقد قال «جوردانو برونو» [١٥٤٨ـ ١٩٦٠م] الذى عُومل كمنشق عن المسيحية . . وملحد . . والذى قضى سبع سنوات فى السجون تنفيذًا لحكم محاكم التفتيش . . لقد قال :

«إننا نبحث عن الله فى القانون الطبيعى الثابت غير المستقر، وفى الوجدان المفعم بالخشية، ونبحث عنه فى سطوع الشمس، وفى جمال الأشياء التى تنطلق من حضن مناغاة الأم لأبنائها، وفى إطلاله النجوم(طلعة) التى لا تحصى، التى تتلألأ فى حاشية السماء، ولا تقاس».

* «ولقد اعتبر «روجر بيكون»[١٢١١-١٢٩٤م] دراسة اللغات اليونانية والعربية والعبرية أمرًا لا مناص منه من أجل تفهم أفضل للإنجيل المغلوط، ومن أجل دلالة اللفظ وترجمات أرسطوطاليس وسائر علماء المسلمين. وأصدر رؤساء الطائفة أمرًا بنفى الملحد المزدرى للسلطات المقدسة عشر سنوات من أكسفورد- إلى باريس.. وصدر عليه الحكم بالسجن سنة ١٢٧٨م، ثم بالسجن المؤبد، إلى أن حرره الموت سنة ١٢٩٤م، بعد خمس عشرة سنة قضاها فى السجن».

* «أما «سيجر» - من باربانت - الذى رفع راية ابن رشد[٥٢٠-٥٩٥هـ ١١٢٦-١١٩٨م] فى الحقيقة المزدوجة - والذى تصدى للحكم الصادر ضده بشجاعة، واستنجد بالبابا، فقد قضى الـ ١٥ سنة المتبقية من عمره فى سجن البابا، ومات فيه مخنوقًا..».

* «إن كبلر»[١٥٧١-١٦٣٠م] هو الشخص الذى كان يمتلك الحرية النفسية والشجاعة للإطاحة بالعقيدة اليونانية - الأرسطية حول مسار النجوم الدائرى، الذى أدى إلى إعاقة شديدة، على النحو - أى الإطاحة - الذى اقترب به الفلكيون العرب فى القرن ١١..»

* «وإنه لمن الخطأ - بكلمات الفيلسوف الشاب «كانت»[١٧٤٢-١٨٠٤م] بناء حكم عام: أن نعتقد بأن العلم الطبيعى اعتمد، كشرط أو نتيجة محتمة، إطلاق المادة، وميكنة الحياة الإنسانية، ووداع الله من هذا العالم وداع لا لقاء بعده! . إذ على العكس، فقد كان ممكنًا فوق أرضيته حكمة دينية جديدة لحقيقة الموقف واتخاذ موقف.. من المادة تنزع به الشوائب التى ما زالت عالقة بها من قبل «توما الأكوينى» [١٢٢٥-١٢٧٤م]، وأن يرتفع بها إلى مرتبة برهان إلهى منظور، مدرك، يمكن التعرف إليه، كسبب لكل ما هو صغير وكبير، لكل ما فيه حياة وما ليس فيه، ولكل القوى المؤثرة الموجودة فى الطبيعة والانتظام الداخلى. وهذه الوحدة الداخلية للكون كله هى الفرضية الأصلية لكل المعرفة العلمية فى الفهم الأوروبى».

* «يقول «آرثور ستانلى أربجتون» [١٨٨٢-١٩٤٦م]:

«إن الفيزياء الحديثة تقودنا بالضرورة إلى الله، ولا تبعدنا عنه، ولم يكن أى مخترع للإلحاد عالمًا طبيعيًا. بل كانوا جميعًا فلاسفة، أنصاف معتدلين جدًا».

* ويقول «ألبرت أينشتاين» [١٨٧٩ - ١٩٥٥م]:

«على كل باحث طبيعى متعمق، أن يكون على مقربة من نوع ما من الشعور الدينى؛ لأنه قد لا يستطيع أن يتصور بأن الصلات الدقيقة النادرة التى يخشاها، قد صدرت عنه بادئ الأمر. ففى الكون المبهم يتجلى فهم تأنٍّ بغير حدود. إن التصور الجارى القائل بأننى ملحد ينطوى على خطأ جسيم. من يستخلصه من نظرياتى العلمية، فقلما يكون قد أدرك غايتها».

* «وعند الفيزيائى «هايزنبرج» [١٩٠١ - ١٩٧٦م]:

«الله موجود فى العالم، وفىَّ أنا. إنه يبرهن عن ذاته فى مركزية وانتظام سائر الأشياء وكل المستجدات، كما أنه خلف كل الظواهر الصلة الملموسة، التى ينهل الإنسان من مأمنها قوته، والذى لا يمكنه الشك فى حقيقتها» هنا اكتمل التطابق بين العقيدة والمعرفة..

لقد كتب «هايزنبرج» - أيضًا -: إن التقسيم المزدوج، حسب التصور الأرسطوطاليسى كان بحق خاصية شيطانية، إنه يؤدى من خلال التكرار المتصل إلى الفوضى فقط. غير أن الإمكانية الثالثة التى برزت إلى السطح بواسطة النظرية التكاملية الكمية، يمكن أن تكون مثمرة، وأن تنفذ بالتكرار فى حيز العالم الحقيقى».

* «إن العلم الطبيعى الأوروبى كان ممكنًا فقط على أرضية إيجاد تفسير دينى آخر للطبيعة، وعلى المفهوم الإلهى لمغزى المادة، التى، لا كما يقول توما الأكوينى عنها، بأنها مصابة بكل ما يخطر على البال من شوائب، بل هى سامقة للانبساط الإلهى المنظور، المحسوس، الذى تتحقق وحدته وتنسجم فى شتى الصور - وتتجسم «وتتجمع لتتحد انطلاقًا منها - للتوحد»(١٧).

* * *

* «إنها خديعة الاعتقاد بأن فى مقدور العلم معرفة كل شىء، ونظرته للحقيقة على

أنها الكل فى الكل. وبذلك فإن الحقيقة كلها، وجميعها، ما يتعرف إليها هو، ويمكن صنعها بالتقنية كاملة، هى تلك المخاوف والذعر، وانعدام الغاية والأمل، والاستسلام والعدوانية، والمعاناة والعنف اليومى، كلها جميعًا من جريرة تلك الخديعة . .

إن الفكر النهائى نفسه لا يصبح آنئذ واقعًا، إلا إذا تواجد فى ضوء اللامتناهى. **إن العلم لا يدرك دائما سوى جزء من الحقيقة**، والصورة العلمية وإن كانت مصيبة حقًا، فإنها مع ذلك صورة معنوية، لا تصرف النظر فقط عن النوعيات والصلات ذات الصفة غير السببية، كالتعرف إلى الحياة والموت، البداية، أو انعدامها، أجل وعن الإلمام بالشروط المسبقة الخاصة بها.

وحيث إنه لا يقدم حول هذه الأمور دومًا إلا بعض وجوه الحقيقة الكلية بحسب موقع المشاهد ووفق سؤاله، للسبب الآتى فقط؛ لأنه كنتيجة لتنوير المجالات الخاصة دوما، فقد أبقى على فراغات عريضة تتخللها، وحتى ما قدم منها بشكل غير مباشر، دون تنوير.

لقد سلط الضوء، بحيث إن ما كان قابلاً للإدراك رياضيًا للحقيقة الموضوعية، قدّم عن العالم صورة واهية ضحلة، يستلزم بالضرورة فهمًا تجريبيًا، فى سائر مناحى الحياة:

لقد نظر إلى العقل بمثابة الآلة الوحيدة التى يحتاج الإنسان إليها، والمناسبة له لتسديد ما يفعل ويترك، وللتغلب على المستجدات التكنولوجية الآخذة فى التعقيد» . .

إنه الأسر فى بنى الفكر الثنائى القديم، انشطار الإنسان فى جانبيات متطرفة، هو الذى أمد فى عمر الأزمة، أو فى اشتدادها».

«والزلزال الذى نعيشه اليوم نشأ فى الأصل عن شق عصا الطاعة الذى أخذ فى التزايد ضد الإله المسيحى الذى أصبح غير جدير بالاعتقاد، كما شخّص «نيتشه» [١٨٤٤-١٩٠٠م] ذلك، من خلال استئصال الآخرة، التى جردت من قيمها كذلك من لدن المتنورين. والآن تحققت لعنة الثنائية من كل شكل»(١٨).

❊ ❊ ❊

- ٩ -

أصول النهوض الإسلامى

*«عندما تحررت البلاد العربية من نير الاستعمار الذى جثم فوقها قرونا . . ألفت نفسها - على اختلافها - تواجه متطلبات العصر الحديث . . وأخذت تسلك سبلاً مختلفة كى تشق طريقها إلى العالم الحديث لتفسح لنفسها مكانا فيه، والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم الفتية، وأن يحتذوا سيرة السادة اللاحقين وحياتهم الناجحة، وطريقتهم فى العيش والتفكير، وعاداتهم، وما حققوه من إنجازات مادية ومثل أخلاقية، وهكذا يتأوربون كالأوروبيين، ويتأمركون كالأمريكيين، ويتروّسون كالروسيين.

على أن ضد هذا الخطر الجديد، الذى بات يتهدد الاستقلال الداخلى بعد التحرر خارجيا، تداعت القوى على اختلاف تجربتها فى المعاناة فى ماضيها مع الاستعمار وشدة اغترابها - وأعلنت رفضها أن تكون مجرد تقليد أعمى للمدنية الحديثة الغربية . .

إن تلك «الأصول» و«الجذور» التى ينبغى على العالم العربى أن «يجدها» ويتعهدها حتى «يشق طريقه إلى أمام» - والتى ذكرتها فى كثير من محاضراتى فى المغرب العربى كله - هى :

١- اللغة العربية . . فهى المفتاح الرئيسى إلى عالم الفكر الذاتى للعرب .

٢- الدين، بصفته المحور الذى يدور حوله وجودهم، فى كل ما يتعلق بأمورهم، ونعنى بذلك الإسلام النقى من العناصر غير الإسلامية، المنفتح على العالم، الذى لا يعارض التطور العقلى . .

٣- وعودة الوعى، والرجوع إلى الهوية الذاتية، الذى يتطلب :

التنقيب عن الماضى الفكرى المدفون تحت الأنقاض تماما، واستيعاب أسباب نشوئه، واكتماله واكتهاله، ثم تقهقره واندثاره، والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل، فالعرب انطلقوا من قبل أيضًا من البداية، وكانوا آنذاك وسط حضارات تفوقهم فلم يترددوا فى الأخذ عن أولئك الغرباء ما رأوه ضروريًا لبقائهم، دون أن يحاكوا محاكاة عمياء، ثم واصلوا فوقه البناء بطريقتهم الخاصة، وبالوسائل التى أتاحها لهم نبوغهم المميز. وصاحب هذا تطويرهم لأساليبهم النابعة منهم، وهكذا غدوا أكفاء لخلق إبداع فكرى جديد، قيم من الدرجة الأولى، منتم إليهم.

فالتعلّم من الماضى لبناء المستقبل حق مفروض.. ورفض غلو التقوقع والانغلاق.. وغلو الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط، المؤدى إلى الاغتراب.. هو شرط للنجاة من الانحياز لجبهة واحدة، الأمر الذى يتهدد الحياة..

لقد أعقب المرحلة الأولى التى تلت الاستقلال، والتى اتسمت - على جميع المستويات - باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيديولوچية الروسية قدوة لها، انتكاس المسيرة وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب دخيل، ورفضه، وبخاصة ما أتى من «الغرب» وقد ارتبط ذلك بإحياء الإسلام والرجوع إليه.

إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا. نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة بأن تلطخه بالسواد، وإذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة فى حقه، والجهل البحت به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق مع ضمان حقه فى أن يكون كما هو..»[١٩].

* * *

الهوامش:

(١) سيجريد هونكه «الله ليس كذلك»ص٥٣ ـ ٥٥ ، ٤٥ ، ٣٠ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .
ترجمة: د. غريب محمد غريب . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

(٢) المرجع السابق . ٤٠ ، ٤٣ .

(٣) المرجع السابق . ص٦٦ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٤) سيجريد هونكه«العقيدة والمعرفة»ص ٣٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٢٤ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١٦٨ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١١١ . وترجمة عمر لطفى العالم . طبعة دمشق سنة ١٩٨٧م .

(٥) «الله ليس كذلك» ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٣٧ . و«العقيدة والمعرفة»ص ٢١ ، ١٥٩ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ١٩٤ ، ١٨٧ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٦٧ ، ١٦٥ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ٢٢٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ . و«فضل العرب على أوروبا» ـ لذات المؤلفة ـ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٩٠ ، ٩١ . ترجمة: د. فؤاد حسنين علي . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٦) «العقيدة والمعرفة»ص ٢٤ـ٢٦ .

(٧) «الله ليس كذلك»ص ٨٠ ، ٨١ .

(٨) «العقيدة والمعرفة»ص ١٠٣ـ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(٩) المرجع السابق . ص١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ١٩ .

(١٠) المرجع السابق . ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١١٥ـ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(١١) المرجع السابق . ص ١٣٤ـ١٣٨ .

(١٢) المرجع السابق. ص ١٥٤ـ١٥٧ ، ١٨٠ ، ١٧٠ .

(١٣) المرجع السابق . ص١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١٤) المرجع السابق . ص١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٣٢ .

(١٥) المرجع السابق. ص١٤٠-١٤٢، ١٥١، ١٥٠.

(١٦) المرجع السابق. ص١٨٥، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٠، ١٦١.

(١٧) المرجع السابق. ص٦٠، ٨٦، ٨٧، ٧٤، ٢٠٨-٢١١، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٣١، ٢٢٥، ٢١٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٣، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٠٦.

(١٨) المرجع السابق، ص ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٥.

(١٩) «الله ليس كذلك» ص ٩٥، ٩٦، ١٠١.

❊ ❊ ❊

رقم الإيداع ٢٠٩٨٧ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1449-5

الدين والحضارة

• لماذا أبدع المسلمون فى الحضارة وعلومها المدنية والطبيعية، منذ القرن الهجرى الأول؟..

• بينما أدخلت النصرانية الغربية أوروبا عصورها المظلمة - عصور الجهالة العلمية والفكرية - لعشرة قرون؟!.. فلم تعرف أول فلكى - «كوبر نيكوس» - إلا فى القرن السادس عشر الميلادى؟!.. ومنعت الكنيسة نشر كتابه حتى القرن الثامن عشر؟!..

• ولماذا ظلت مؤلفات العلم الاغريقى والرومانى حبيسة الصناديق المسلسلة بالجنازير فى الكنائس والأديرة، حتى جاء الإسلام فحررها.. وترجمها.. وأحياها.. وطورها.. وأبدع فى علومها؟!..

• ولماذا ظل المترجمون - غير المسلمين - عاطلين عن العمل سبعة قرون.. حتى غدوا مواطنين فى الدولة الإسلامية.. فأبدعوا فى الترجمة.. وشاركوا فى بناء الحضارة الإسلامية، عندما استدعاهم الإسلام للعمل والبناء؟!

• للاجابة عن هذه الأسئلة - التى يتهرب منها الكثيرون! - يصدر هذا الكتاب، ليكشف عن حقيقة الإسلام.

عوامل امتياز الإسلام
«شهادة غربية»

• «..إن الإسلام هو أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وانصافا..»..

• «.. وإن الجهاد الإسلامى ليس ما تطلق عليه المسيحية «الحرب المقدسة»....».

• «.. ولقد كان الفكر اليونانى تجريديا، لا يهتم بالتجريب؛ لأنه من العمل اليدوى، الخاص بالعبيد!..».

• «.. ولقد احتقر الفكر المسيحى الطبيعة، وعلومها؛ لأنها دنس وخطيئة.. وحصر العلم فى الانجيل!..».

• «.. أما العقل المسلم، فإنه هو الذى جعل التجريب والعلوم الطبيعية عبادة، تجعل العلماء أكثر خشية لله. إذ الطبيعة - فى الإسلام - خلق لله، تسبحه، وليست دنسا.. ولذلك، أدخل المسلمون النور والنظام على أعمال الأقدمين.. وأحيوا تراث الحضارات القديمة، الذى ظل حبيس الصناديق المسلسلة بالجنازير!.. وأبدعوا فى سائر ميادين العلم الطبيعى، منذ القرن الهجرى الأول.. بينما ظلت الحضارة المسيحية الأوروبية معادية للعلم الطبيعى، فلم تعرف أول فلكى - كوبرنيكوس - إلا فى القرن السادس عشر!.. بعد هزيمة المسيحية أمام العلمانية!..

• تلك سطور من شهادة المستشرقة الألمانية: د. سيجريد هونكه - التى تقدمها صفحات هذا الكتاب.


6223002801770